"يقولون إن الإنسان يعيش مرّة واحدة فقط، فلمَ إذًا يموت كثيرًا؟"

سمّيته كرافتّة

ميلينا ميتشيكو فلاشر



ترجمة: أحمد صلاح

روايات مترجمة

”كم أنت مُنعزل عن هذا العالَم،

العالَم الجميل الذي قد يكونُ له مغزى،

كم أنت منبوذٌ من كل كمال طبيعي،

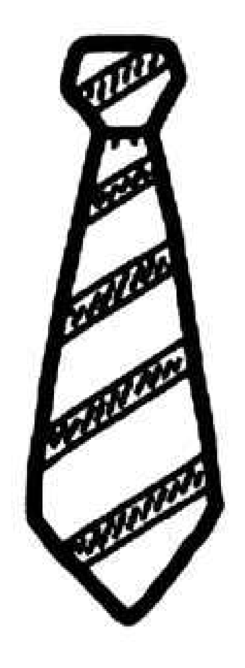
وحيدٌ في فراغك،

غريبٌ، أصمٌّ في هذا السكون العظيم“

- من رواية «إجابة من السكون» للكاتب «ماكس فريش»



1



سمَّيتُه «كرافتة».

أعجبه الاسم. كان يُضحِكُه.

خطوط حمراء ورمادية على صدره. هكذا أُريد أن أحتفظ به في ذاكرتي.

2

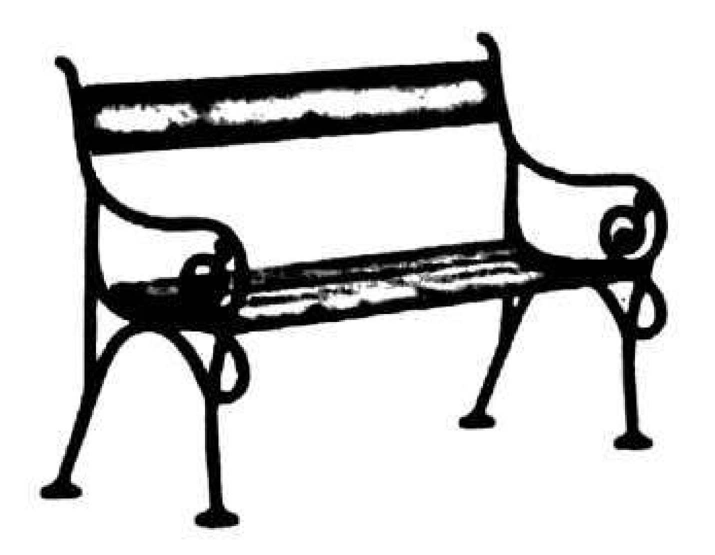


مرّت سبعة أسابيع منذ أن رأيته آخر مرّة. في الأسابيع السبعة جفَّ العشب واصفرّ. كانت حشرات «الزيز» تُصدر صريرًا فوق الأشجار. الحصى يُحدث صوتًا تحت قدميَّ. في وضح النهار، وتحت ضوء الشمس بدت الحديقة مهجورة بغرابة. زهور مُكدَّسة فوق أفرع الأشجار تتدلَّى وهنًا على الأرض. منديلٌ أزرقُ شاحبٌ مُعلَّق على الأشجار المُتشابكة، لا تُحرِّكه أي نسمة هواء. الهواء ثقيل يضغط على الأرض. أنا إنسان مضغوط. أودِّع شخصًا لن يعود مرَّة أخرى. أعلم ذلك منذ الأمس. إنه لن يعود. تمتد فوقي السماء نفسها التي أخذته، ربما إلى الأبد.

ما زلتُ لا أصدق أن وداعنا كان الأخير. في مُخيِّلتي، قد يظهر في أي لحظة، ربما في صورة شخص آخر، ربما بوجه آخر، ليرميني بنظرة

تقول: «أنا هنا». وجَّهتُ رأسي إلى الأعلى وابتسمت للسُّحُب. قد يأتي. لذا فأنا أجلس هنا.

3



أجلس الآن على دكّتنا، والتي قبل أن تصبح دكّتنا، كانت لي وحدي.

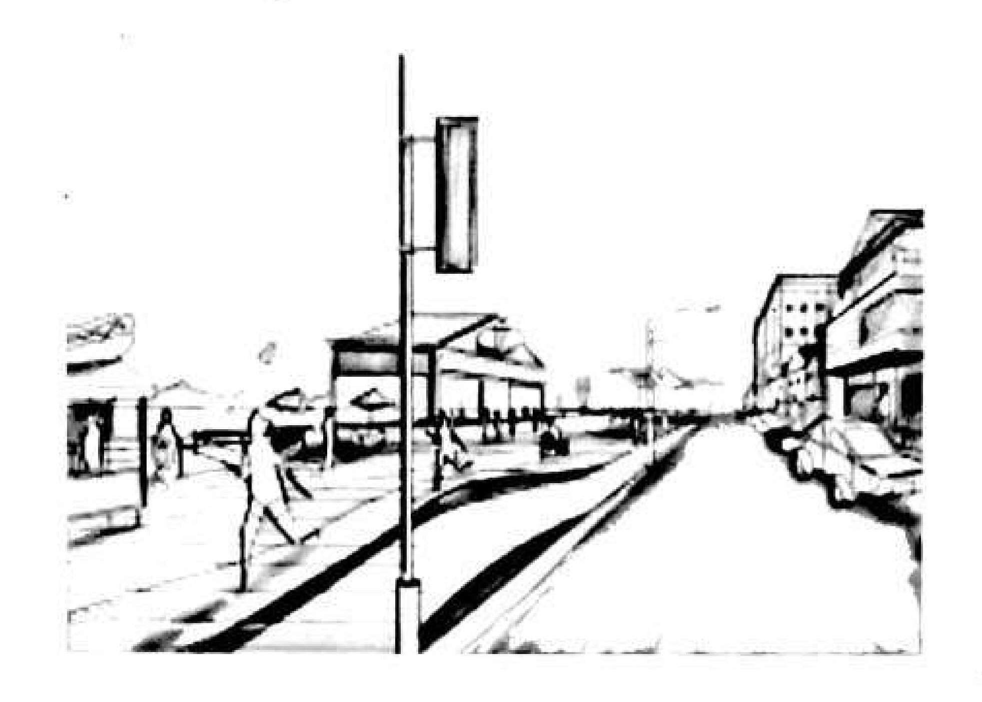
جئتُ هنا لكي أتبيَّن الشبه بين تأثير تصدُّع الجدار - ذلك الشقّ البسيط فوق الرفوف - داخل المنزل وخارجه. أمضيتُ عامين كاملين أحدِّق به. عامين كاملين داخل غرفتي، في بيت والديَّ. كُنتُ أغمض عينيَّ وأرسم خطًّا متقطعًا مكان الشقِّ، خطًّا يمرُّ في رأسي، يمتدُّ داخله إلى أن يصيب قلبي وأوردتي. أنا نفسي كُنتُ خطًّا رفيعًا، هزيلًا بلا روح. كانت بشرتي شاحبة كالموتى؛ لأن الشمس لم تمسها. أحيانًا كُنتُ أشتاق إلى لمسة منها. تخيَّلتُ ما الذي سيحدث لو خرجت وفهمت أخيرًا أن هناك غرفًا لا يمكن مغادرتها أبدًا.

في صباح أحد أيام فبراير الباردة، أفسحتُ الطريق أمام اشتياقي. من خلال الفاصل بين الستائر، استطعت رؤية سربًا من الغربان.

كانت تطير صعودًا وهبوطًا، والشمس تظهر من وراء أجنحتها. أبهر ضوؤها بصري، أصاب عينيَّ ألمٌ شديدٌ. تحسَّستُ الطريق من خلال جدران غرفتي إلى أن وصلت إلى الباب، فتحته بقوة، ارتديتُ معطفًا وحذاءً، كان مقاسه يصغرني بنمرة واحدة. خرجتُ إلى الشارع ومررتُ بالبيوت والساحات. رغم البرودة، تصبَّب جبيني عرقًا، وانتابني شعور غريب بالرضا؛ ما زال بإمكاني القيام بذلك. أستطيع تحريك إحدى قدميَّ أمام الأخرى. لم أنسَ كيف أفعلها. كل المجهود الذي بذلته كي أنسى ضاع هباءً منثورًا.

لم أحاول أن أخدع نفسي. أردتُ أن أهتم لأمري فقط، كما كُنتُ من قبل. لم أود لقاء أي شخص آخر. لقاء شخص ما يعني مشاركته والتورُّط معه. سيربطني به خيط غير مرئي، خيط بين إنسان وإنسان، خيوط حقيقية، خيوط عشوائية. لقاء أحدهم يعني أن تصبح جزءًا من نسيجه، وهذا ما كان عليَّ تجنُّبه.

4

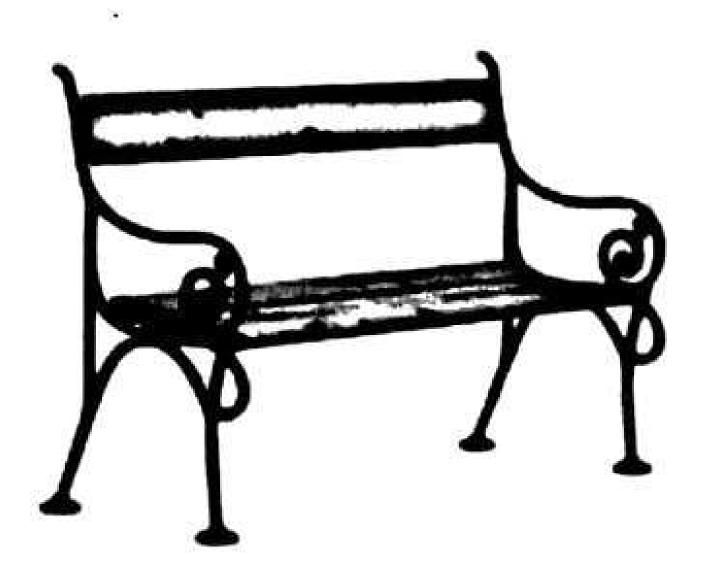


عندما أعود بذاكرتي إلى أول خروج لي من سجني... بالتأكيد هكذا يكون شعور السجين الذي يتحرَّر حاملًا زنزانته معه، ناظرًا من وراء قضبانها، ويعلم جيدًا أنه ليس حُرًّا... حسنًا، عندما أعود بذاكرتي إلى أول خروج لي من سجني، يبدو لي كما لو كُنتُ شخصية من فيلم أبيض وأسود تتحرَّك في مشهد من فيلم ملوَّن. الألوان صاخبة في جميع الأرجاء. سيارات أجرة صفراء، صناديق بريد حمراء، لوحات إعلانية زرقاء. أصابتني شدة الألوان بالدوار.

انعطفت عند النواصي، ياقتي مرفوعة لأعلى، ملتزمًا الحذر كي لا أتعثر في أقدام أي شخص. أفزعتني فكرة احتكاك رجل بنطالي بمعطف شخص آخر أثناء المرور بجانبه. ضغطتُ بذراعيَّ على جانبيّ وجريتُ. جريتُ، وجريتُ دون النظر يمينًا أو يسارًا. كانت الفكرة الأكثر رعبًا

تلك النظرات المتبادلة التي تتلاقى في لحظة عشوائية. تتشابك معًا لبضع ثوانٍ. لا تنفصل عن بعضها بعضًا. ذلك الغثيان كان يملؤني. يملؤني تمامًا. كلما جريتُ أبعد، شعرت بوزن جسدي. جسد يتبخّر من بين أجسادٍ كثيرةٍ. اصطدم أحدها بي. لم أستطع تحمُّل نفسي بعدها. جريتُ إلى الحديقة ويدي على فمي، ثم تقيّأتُ.

5



كُنتُ أعرف الحديقة والدِّكَّة الموجودة عند شجرة الأرز. ذكَّرتني بطفولتي. ماضٍ بعيد. لو كانت أمي هنا، لكانت ستُلوِّح لي بيدها وتُجلسني على حِجرها، وتشرح لي العالم بسبَّابتها الممدودة. «انظر، عصفور! إنه يزقزق». كانت أنفاسها على وجنتي. دغدغة في مؤخرة عنقي. شعرها يتطاير برقَّة ذهابًا وإيابًا. عندما يكون الإنسان صغيرًا، صغيرًا جدًّا لدرجة تجعله يظن أن الأشياء تستمر للأبد، وأن العالم مكان لطيف. هذا ما خطر ببالي عندما تعرَّفتُ إليها مجددًا؛ إلى دكَّة طفولتي. الدِّكَّة التي كان ينبغي أن أتعلَّم عليها أن لا شيء يبقى كما هو، إلا أن الأمر يستحق العيش في هذا العالم. ما زلتُ أتعلَّم ذلك.

لو كان موجودًا لقال: «لقد كان قرارًا».

قرَّرتُ في الواقع السير فوق العشب، والاتجاه نحو الدِّكَّة والوقوف أمامها. كُنتُ وحيدًا، يطوقني الصمت. لا أحد هناك يمسك بي وأنا

أدور حول الدِّكَّة مرَّة تلو الأخرى في دوائر أصغر فأصغر. المذاق الذي كان في فمي عندما جلستُ أخيرًا. رغبتي في أن أعود طفلًا مرَّة أخرى. العودة إلى النظر للأشياء عبر أعين مندهشة. أقصد أن عينيَّ مرضتا أولًا، ثم تلاها قلبي. هكذا جلست مرتديًا رداءً رقيقًا للغاية، أرقّ حتى من جلد بشرتي التي كُنتُ أرتجف تحتها.

6



بعد ذلك، قادني شيءٌ ما كل صباح إلى هناك. كُنتُ أرى الثلج وهو يتساقط، ثم أراه وهو يذوب. أسمع خرير الماء في المجرى. أتى الربيع وحضر معه الناس. سُمعت أصواتهم. جلست أجزّ على أسناني. غصة في الحلق. إنه شقّ جدار غرفتي. الشقّ الذي فصلني عن أولئك المنسوجين معًا. اثنان مغرمان مرّا جواري ببطء متهامسين. كلماتهم السرية التي اقتحمت مجالي بدت لي غريبة، ككلمات لغة لا أتقنها. سمعت أحدهما يقول أنا سعيد، سعيد بشكلٍ لا يوصف. علق لساني في فمي. حبست الغصة بداخلي.

أشكّ أن يكون قد لاحظني أحد. حتى لو حدث ذلك سيكون مثلما يلاحظ الإنسان شبحًا يراه بوضوح وجلاء، لكنه لا يريد أن

يصدق أنه رآه، ثم يغمض عينه حتى ينصرف. كُنتُ مثل هذا الشبح. حتى والديَّ لم يشعرا بوجودي. عندما كُنتُ أصادفهما عند مدخل البيت أو في الردهة، كانا يهمسان غير مصدقين: «آه، إنه أنت». لقد توقفا منذ فترة عن اعتباري واحدًا منهم. «لقد فقدنا ولدنا. لقد مات قبلٍ أوانه». كان هذا بالتأكيد شعورهما تجاهي. شعور بأنني فقيدٌ حيٌّ. لكنهما بدآ تدريجيًّا في التعايش مع الأمر. الأسى الذي قد يكونان شعرا به نحوي في بادئ الأمر، توارى وحلَّ محله إدراكهما أن استعادتي أصبحت أمرًا خارج سُلطتهما، وبغض النظر عن مدى غرابة الموقف بالنسبة لهما، لكن سرعان ما استقر نظام حياة مُعين بيننا. نعيش معًا تحت سقفٍ واحدٍ، وطالما لا يخرج الأمر خارج المنزل، يصبح السكن معًا تحت سقفٍ واحدٍ ببساطة أمرًا طبيعيًّا.



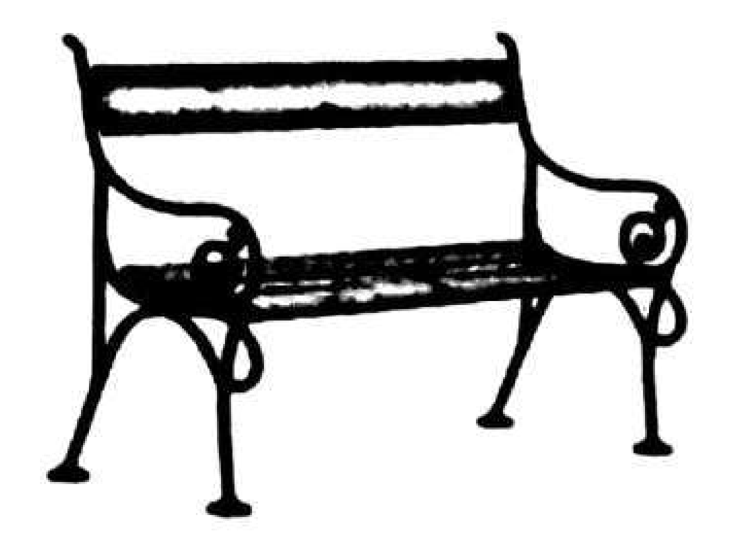
الآن أدرك استحالة تجنُّب البشر. ما دام الإنسان يعيش ويتنفس فإنه سيقابل العالَم بأسره. الخيط غير المرئي يربط كل منَّا بغيره منذ لحظة ولادته. قطع هذا الخيط يتطلَّب أكثر من مجرد موت أحدهم، وعدم تقبُّل الأمر لن يفيد في شيء.

عندما ظهر، لم يكن لديَّ أي فكرة.

أقول ظهر لأن هكذا كان الأمر. لقد ظهر فجأة في صباح أحد أيام مايو. كُنتُ أجلس على دكَّتي رافعًا ياقتي لأعلى. طارت حمامة فوقي. أصابتني رفرفة جناحيها بالدوار. عندما أغمضت عينيَّ وفتحتها، كان هنا.

مُوظَّف. في منتصف الخمسينيات. كان يرتدي بذلة رمادية، وقميصًا أبيضَ، وكرافتة مخططة أحمر في رمادي. كانت تمايل في يده اليُمنى حقيبة مستندات. جلدها بني. كان يمشي أكتافه منحنية إلى الأمام، ووجهه مُشتت، والحقيبة تتحرك في يده إلى الأمام والخلف. بدا مُتعبًا بطريقةٍ أو بأخرى. جلس على الدكة المقابلة دون النظر إليَّ. وضع ساقًا على الأخرى. ظلَّ كذلك. لم يتحرك. وجهه متوتر في عزلته. كان ينتظر شيئًا ما. شيء ما سيحدث. الآن، الآن. بدأت عضلاته ترتخي تدريجيًّا، اتكأ إلى الخلف وتنهَّد. هذه التنهيدة أوحت أن بداخله هذا الشيء، الشيء الذي لم يحدث.

نظرة شريدة للساعة. أشعل بعدها سيجارة. تصاعد الدخان في دوائر. كانت هذه بداية معرفتنا ببعض. رائحة نفاذة في أنفي. حرَّكت الرياح الدخان في اتجاهي. حتى قبل أن نتبادل الأسماء، عرفتنا الرياح ببعضنا.



هل كان ذلك بسبب تنهيدته؟ أم الطريقة التي نفض بها الرماد؟ كان غارقًا في أفكاره، ناسيًا نفسه تمامًا. لم أنجل من مراقبته، حتى وهو جالس أمامي.

راقبته وكأنه شيء مألوف، فرشاة أسنان أو فوطة أو قطعة صابون، يراها الإنسان للمرَّة الأولى ويجهل تمامًا الغرض منها. قد تكون الألفة التي شعرت بها تجاهه أثارت اهتمامًا خاصًّا بداخلي. كانت هيئته الخارجية تشبه الآلاف غيره ممن يملؤون الشوارع ليل نهار. يندفعون أفواجًا من قلب المدينة، ويختفون في مبانٍ شاهقة تنكسر السماء في نوافذها إلى قطع صغيرة. أولئك أصحاب الوجوه المألوفة في المكان، غير اللافتة للانتباه، وجوه حليقة الذقن من ضواحي المدينة، متشابهون لدرجة تجعلك تخطئ في التمييز بينهم. فهو مثلًا قد يكون أبي أو أي أب، لكنه كان هنا. وأنا أيضًا.

تنهَّد مرَّة أخرى، هذه المرَّة بصوت أهدأ. أظن أن مَن يتنهَّد هكذا ليس متعباً وحسب. شعوري بالتنهيدة فاق تفكيري بها. شعرت أنه واحد ممن تعبوا من الحياة. كانت الكرافتة تخنق حلقه. رخاها ونظر إلى ساعته مرَّة أخرى. كان ذلك قبيل الظهيرة. أخرج وجبة «البينتو» الجاهزة؛ أرز، وسمك سلمون، وخضروات معلَّبة.

9



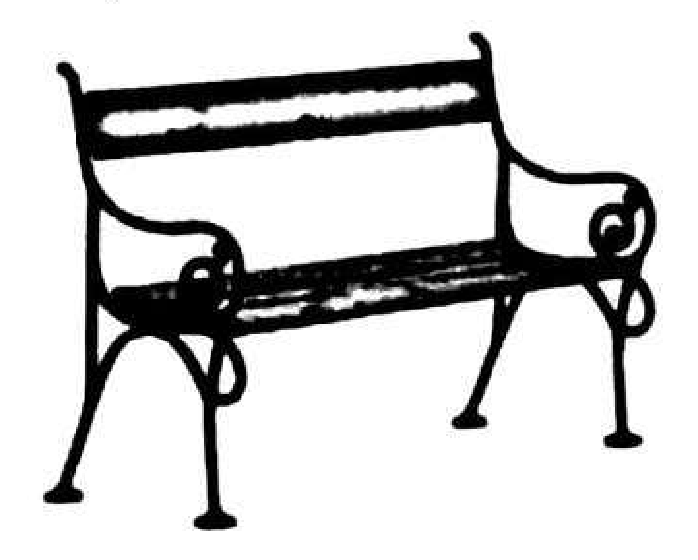
أكل ببطء، مضغ كل لقمة عشر مرَّات. كان لديه مُتَّسع من الوقت. شرب الشاي المثلج على جرعات صغيرة. راقبته وهو يقوم بذلك أيضًا. لم أستغرب تقريبًا مما أفعله، حيث إنني في السابق كُنتُ أطيق بالكاد مشاهدة شخص آخر أثناء تناوله الطعام والشراب. لكنه فعل ذلك بحرص شديد لدرجة أنستني اشمئزازي الذي كُنتُ أشعر به سابقًا. أو كيف يمكنني أن أصف ذلك؟ لقد فعل ذلك بوعي تام بما يفعل، الأمر الذي جعل من نشاطٍ يوميٍّ مثل هذا أمرًا ذا أهمية. كان يأكل كل حبة أرز على حدة، ويُولي كل منها الاهتمام نفسه، بابتسامة امتنان.

لو كُنتُ رأيتُ شخصًا آخر يفعل ذلك، لنهضت وهربت، لوجدت طحن فكّه للطعام بمثابة تهديد، وحركة أسنانه خطرًا. كُنتُ أرى إلقاء أحدهم بقطع الطعام في فمه واحدة تلو الأخرى إلى أن تنزلق إلى أمعائه أمرًا مُشينًا. حتى أنا كُنتُ ألتهم الطعام دون تفكير. إن

الإكراه الداخلي الذي دفعني للحفاظ على نفسي، الحفاظ على نفسي رغم كل شيء، كان بالنسبة لي لغزًا حرصتُ على عدم حلّه. كان من الأفضل عدم التفكير في الأمر.

بمجرد انتهائه من تناول الطعام، عاد مرّة أخرى موظفًا عاديًّا. فتح الجريدة، وبدأ بقراءة صفحة الرياضة. مكتوبٌ فيها بخط عريض: «چاينتز يحقق انتصارًا كبيرًا». أومأ برأسه أثناء مروره بإصبعه على السطور راضيًا عن الأمر. رأيتُ خاتمًا في إصبعه، أي إنه متزوج. متزوج ومُشجِّع لفريق البيسبول «العمالقة» «چاينتز». أشعل سيجارة أخرى. تبعتها أخرى ثم أخرى، إلى أن حوَّطه الدخان.

10



في وجوده، صارت الحديقة أصغر. لم تكن تحتوي إلا على دكّتين فقط، دكّته ودكّتي، والخطوات القليلة التي تفصل بيننا. متى سينهض ويذهب؟ غربت الشمس. أصبح الجو أكثر برودة. ربّع يديه. كانت الجريدة مفتوحة على ركبتيه. عبر حشد من تلاميذ المدارس فوق العشب متعثرًا ومُحدِثًا صخبًا شديدًا. هناك سيدتان مُسنتان تحدثتا عن مرضهن. قالت إحداهما للأخرى:

- هكذا هي الحياة، يُولد الإنسان كي يموت.

غلبه النعاس. رأسه ثقيلة. طارت الجريدة، وسقطت على الأرض. سمعت إحداهما تقول:

- قد ينتهي الأمر في أي لحظة، أحيانًا لا يكون بداخلي أي شعور على الإطلاق.

ارتخى وجهه أثناء نومه. وقعت خُصل شعر فضية على جبينه. تحت جفونه يطارد كل حلم الآخر. فخذاه يرتعشان. شعرت شيئًا رقيقًا كسيل اللعاب يتدلى من فمه المفتوح. ما زالت الكلمة التي تُعبّر عما يحدث تائهة عن ذهني. الآن خطرت ببالي. إنها «التعاطف». أو الدافع المفاجئ لتغطيته.

عندما استيقظ أخيرًا، بدا أكثر تعبًا من ذي قبل.

11



الساعة السادسة..

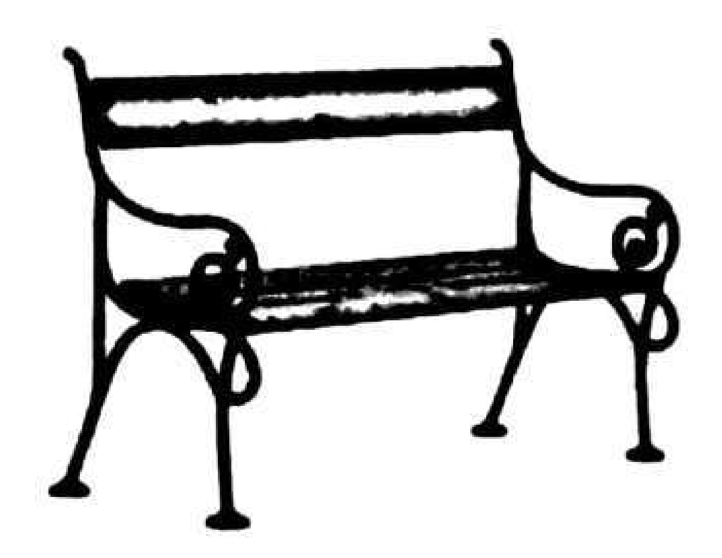
ضيَّق ربطة الكرافتة. مع اقتراب حلول المساء، ملأت ضوضاؤه جميع أرجاء الحديقة. صاحت إحدى الأمهات:

- هيا! دعونا نذهب إلى المنزل!

صوتها الحنون حين ذكرت المنزل. شَعرَ بتشنُّج عضلي عند سُرَّته. نحَّى شعره عن جبهته، تثاءب، ثم نهض. حقيبة المستندات في يده اليمنى. انتظر لثانية مترددًا. ماذا ينتظر؟ تحرَّك واختفى. توارى ظهره الرمادي خلف إحدى الأشجار. تتبعته بنظري إلى أن اختفى تمامًا. ومن المؤكد أن في اللحظة نفسها، تلك اللحظة الخاطفة التي غاب فيها

عن عيني، أنني تنهَّدت مثله.

وماذا في ذلك؟ ارتجفت. نفضت جسدي لأخرج هذا الرجل مني. ما علاقتي بشخص لن أراه أبدًا مرَّة أخرى؟ عاودني الغثيان القديم. شعور لا يُطاق أنني زججتُ بنفسي في مصير شخص غريب. كما لو كان الأمر يخصني. نفضت يديَّ وقدميَّ لأخرِجه من تفكيري، متملكني الاشمئزاز القديم. كما قُلتُ من قبل؛ لم يكن لديَّ أي فكرة. عندما ذهبت في تلك الليلة إلى الفراش، شكَّلت ملاءة السرير أمواجًا، قبل أن أغرق فيها مباشرةً، رأيتُ وجهه مُتداعيًا على الحائط. لم يكن لديَّ أدنى فكرة لماذا رأيتُ ذلك في تلك الليلة. انجرفت في مياه جهلي. عبر الفاصل بين الستائر، سطع القمر على صورته.



لم أنسه في اليوم التالي وأنا في طريقي إلى الحديقة. كان يظهر في أحلامي في صور مختلفة؛ تارة في هيئة حبة أرز، وتارة في صورة سيجارة، مرَّة على شكل مضرب بيسبول، وأخرى كرافتة. كانت صورته الأخيرة مشوشة؛ رجل في غرفة بلا جدران. مع كل خطوة خطوتها، صارت الصورة أكثر شحوبا، إلى أن تخلصت منها تماماً.

عندما وصلتُ إلى دكَّتي، شعرتُ بالارتياح بعدما وجدتُ دكَّته فارغة. وهناك حيثما جلس، لم يتبقَ منه أي أثر. كان عُمال النظافة يفرغون صناديق القمامة. كُنست وجُمّعت أعقاب السجائر في كيس بلاستيك. لم تتبقَ ندفة رماد واحدة تُذكرني به. عادت الحديقة كبيرة كما كانت من قبل. تلألأت قطرة ندى فوق أحد أعواد العشب التي كانت تنبت من الحصى هنا وهناك. انحنيتُ نحوه، جعلته شمس الصباح دافئًا. عندما نهضتُ مرَّة أخرى، كان هنا. ظهر فجأة مثلما

حدث في اليوم السابق.

تعرَّفتُ إليه من مشيته. كانت معوجَّة قليلًا كما لو كان يريد تجنُّب شخصٍ ما. هكذا يسير الناس المُعتادون على التحرُّك وسط تجمُّعات بشرية ضخمة. كان يرتدي البذلة نفسها، القميص نفسه، الكرافتة نفسها. حقيبة المستندات تتمايل في يده. كل شيء يتكرر. جلس، وضع ساقًا على الأخرى، انتظر، ثم اتَّكأ إلى الخلف. تنهَّد، التنهيدة نفسها. نفخ الدخان من أنفه وفمه، أَخْرَجه في دوائر. لم تعد رغبتي في محوه من ذاكرتي مُجدية. كان هنا، حجز مكانًا بداخلي، صار الشخص الذي يمكنني أن أقول عنه: «لقد تعرَّفتُ إليه ثانيةً».

13



كان معه قطعة خبز. أخرجها من الورقة بصعوبة، ظلَّ يُقسِّمها إلى نصفين أصغر فأصغر، شكَّل منها حبَّات صغيرة، ثم نثرها أمام الحمام.

سمعته يهمهم:

- هذا لكم.

وعندما انتهى، أبعدها قائلًا:

- هش هش!

تساقط عليه ريش أبيض. استقرت إحداها فوق رأسه. تشابكت في شعره المُمشَّط إلى الخلف مانحة إياه شيئًا يلعب به. لو كان يرتدي تيشيرت وشورت، لظننتُ أنه طفل. حتى الملل الذي تملَّكه بعدها

مباشرةً كان مللًا طفوليًّا. كان يهتز باضطراب. حَفر بكعبه في الأرض. نفخ خديه، ثم أطلق منهما الهواء ببطء.

كان لزامًا عليَّ أن أفكر في ذلك اليوم الطويل العنيد الذي بدأ للتَّوِّ، وسيمتد إلى ما لا نهاية. كان الشجن الكبير الذي سأشعر به مع انقضاء ذلك اليوم لا يقارن باحتمالية مروره من الأساس. ثم خطر ببالي؛ الشجن، إنها الكلمة المكتوبة على جبيننا. كانت تربطنا. كنا نلتقي فيها.

في الحديقة، كان هو الموظَّف الوحيد، وكُنتُ أنا الانطوائي الوحيد. ثمَّة خطأ ما أصاب كلينا. هو يُفترض أن يكون بمكتبه في واحدة من ناطحات السحاب، أمَّا أنا فكان من المفترض أن أكون في غرفتي، أجلس القرفصاء بين أربعة حوائط. لم يكن يُفترض أن نكون هنا أو على الأقل ألا نتصرف كما لو أننا ننتمي لهذا المكان. تمتد فوقنا خطوط البخار التي تخلف الطائرات. ينبغي ألا ننظر لأعلى، لهذه السماء شديدة الزرقة. نفختُ خديَّ، ثم أطلقتُ الهواء ببطء.

14



في الظهيرة، أتى آخرون يشبهونه. جاؤوا في مجموعات صغيرة. ذهبوا إلى دكك أخرى في الحديقة، ثم جلسوا. رموا كرافتاتهم إلى الخلف فوق أكتافهم. في يد كل منهم وجبة «البينتو» الخاصة به، دردشوا معًا بسعادة. ضحك أحدهم قائلًا:

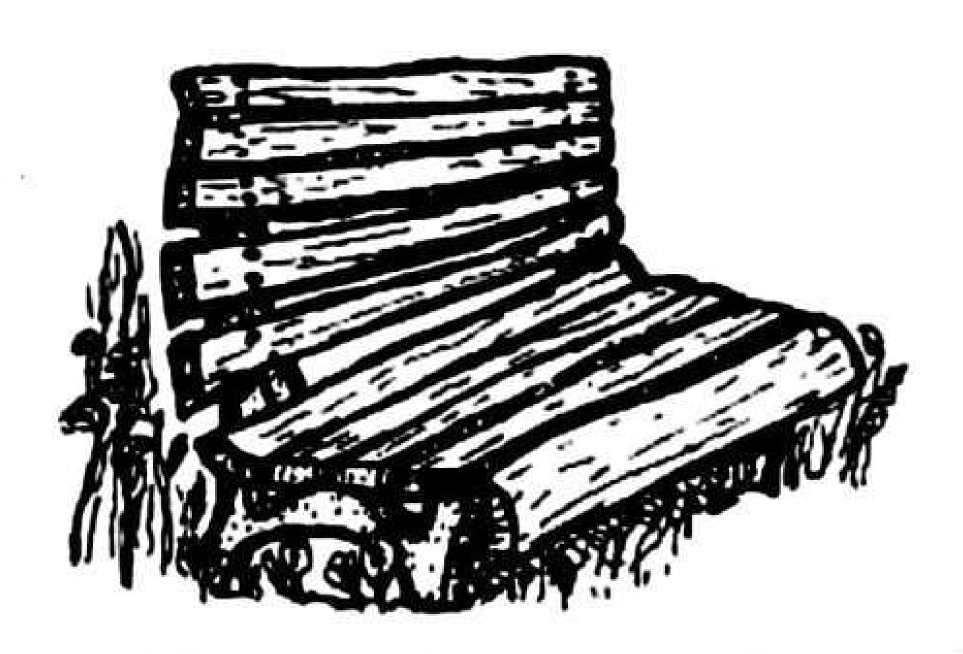
- أخيرًا استراحة. أخيرًا حان وقت تمديد الساقين.

استمرت ضحكته مع ضحكات الآخرين.

لماذا لم يكن معهم؟ وضعتُ افتراضات. ربما كان مجرد شخص يقوم بترانزيت، وفاتته رحلته التالية. كان عليه الانتظار حتى... أو أنه كان مجرد... لم أستطع أن أشرح الأمر لنفسي.

كانت وجبة «اليينتو» الخاصة به هذه المرَّة عبارة عن كُرات أرز، وجمبري مقلي، وسلطة طحالب البحر. فصل عصويَّ الطعام عن بعضهما، أخذ استراحة، مسحهما، حرَّك ظهر يده على عينيه خِلسة. فكه مشدود، رأيته يرتجف. شعرت بالخجل وأنا أراه يبكي. كان بكاءً مكتومًا، وكُنتُ أنا الشاهد الوحيد. استمر شعوري بالخجل؛ مَن يبكي في وضح النهار؟ مَن يفضح نفسه لهذه الدرجة؟ ليس نفسه فقط، لكن يفضحني معه، أنا، مُراقبه! لا ينبغي أن يبكي، ليس أمامي. كان عليه أن يغلق الباب خلفه. كان عليه أن يعرف ذلك؛ أن البكاء أمر خاص. ارتجفتُ كأنني تذكَّرتُ جسدًا مُحطَّمًا على الأسفلت. أمرٌ مروِّع أن أقف بجواره غبيًّا لا أحرِّك ساكنًا بسبب صدمتي. اليد البيضاء الملتوية بغرابة أشارت إليَّ. من بين كل الواقفين أشارت إليَّ. وددتُ أن أُصاب بالعمى. أضاء نور سيارة الإسعاف في وجهي. لن أكرر ذلك مطلقًا؛ أقسمتُ على نفسي ألا أشارك في معاناة شخص آخر. كان عليه أن يعرف ذلك؛ أن البكاء والموت مسائل خاصَّة.

15

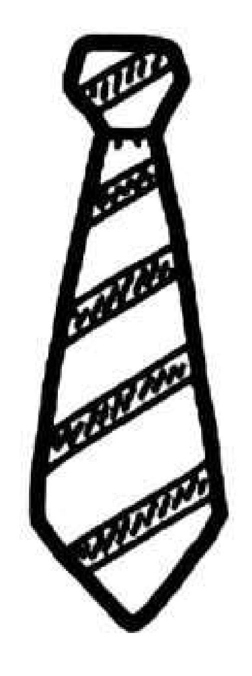


تنحنح. تمالك نفسه. قبلها بقليل ارتجفت ذقنه، ثم توقَّفت. لم يعد يرمش. ذهب خلف الشجيرات والسيجارة بين شفتيه. صَوت فتح السحَّاب وغلقه مرَّة أخرى. صوت تكسير فروع الأشجار. لقد رأيتُ أكثر مما ينبغي. قبل أن يعود، كُنتُ قد نهضتُ وغادرتُ المكان. خارج الحديقة، عبر التقاطع، مررتُ بمحل «فوجيموتو»، ثم إلى المنزل، إلى غرفتي. أغلقتُ قِفل الباب. أصبحت في أمان. عندما هبَّت رياح ترابية، أغلقت الستائر.

في صباح اليوم التالي، نمتُ أطول من المُعتاد. تجاهلتُ رنين المنبِّه بجواري، ظللتُ مُستلقيًا في السرير، غفوتُ مرَّة أخرى. حلمتُ بخيط غير مرئي يَسحب أنفاسي. وأخيرًا استيقظتُ مُعانيًا من صعوبة في التنفس. «لم يحدث شيء». بهذه الجملة، والجُمل التي تلتها «لا يحدث

شيء»، «لن يحدث شيء»، سلكتُ طريقي.

عندما دخلتُ الحديقة، كان جالسًا على الدِّكَّة، عاكفًا على قراءة جريدته. بجانبه علبة «البينتو» الفارغة. شخَّر. الصحيفة فوق ركبته، عنوان الصفحة: «چاينتز وسر نجاحه». قرأته عندما تسلَّلتُ خلفه. رخا ربطة الكرافتة. كانت تتدلَّى من عنقه. شَعر مؤخرة عنقه مُجَّعد. استسلمتُ. كان هذا أيضًا قرارًا. أن أستسلم وأطلق عليه اسمًا، ذلك الذي يُشخِّر هناك. وصل الأمر لمرحلة أن أعطيه اسمًا. ليس «هوندا». ليس «يامادا». ليس «كاواجوتشي». سمَّيتُه ببساطة «كرافتة». كان الاسم يناسبه. أحمر في رمادي.



حسنًا «كرافتة».

- *إنها الكرافتة التي ترتديك، وليس العكس.*

فيما بعد، أصبح الأمر مُزحة بيننا.

- *الكرافتة ترتديك.*

جُملة كانت تجعله يبتسم، ثم يضحك، ثم ينفجر في الضحك بصوتٍ عالٍ.

- *معك حق. من الخطأ الظن أنني مَن يرتديها. أنا لا أرتدي أي شيء، لا شيء على الإطلاق.*

كان ينهار بعدها فجأة، ثم يصمت، يصمت أكثر فأكثر. لو كُنتُ

قد توقَّعتُ هذا الصمت، لكنتُ سمَّيتُه اسمًا مُختلفًا. لكن من أجل ضحكته، تلك الضحكة التي تسبق صمته، استحق الأمر أن أطلق عليه هذا الاسم؛ لأنه نادرًا ما كان يضحك.

ألزمني الاسم تجاهه. مثلما شعرتُ من قبل بتعاطف غامض نحوه، بدأ يتسلل إليَّ شعور غامض بالمسؤولية. أن أكون معه، ألا أتركه وحده. أمرٌ غريب أن يشعر الإنسان بالمسؤولية تجاه شخص لم يعد يستطيع أن يقول عنه: «سأتعرَّف إليه مرَّة أخرى» وحسب، بل يقول: «أنا أعرفه». أعرف كيف يتنفس عندما ينام. الاسم ورطني. لم أعد أشعر بحُرية النهوض والسير بعيدًا عنه. كيف يتمتع اسم ما بمثل هذه القوة؟

17



مرَّ نصف شهر. كان يظهر كل يوم إثنين وثلاثاء وأربعاء وخميس وجمعة. في تمام التاسعة. لم يكن يغيب إلا في عطلة نهاية الأسبوع فقط. كُنتُ أفتقده فيها. اعتدتُ على وجوده لدرجة جعلت من وجودي في الحديقة أثناء غيابه بلا مغزى. من دونه، ذلك الذي كان يجعلني أطرح أسئلة، كُنتُ علامة استفهام عديمة الجدوى، مكتوبة على ورقة بيضاء، تسأل في الفراغ.

في أحد أيام الجمعة الغائمة في شهر يونيو، كاد يغفو حينما بدأت تمطر رذاذًا. نهض، ووضع الصحيفة فوق رأسه، بينما أنا، السجين المُفرج عنه والموضوع تحت المراقبة، فتحت مظلتي، وانحنيت بجسدي أسفلها. ضممتُ ساقيَّ. في البداية كان مجرد رذاذ، وسرعان ما شكَّل الرذاذ أمطارًا منتظمة تُشبه الخطوط المستقيمة. مدَّ يديه تحت المطر.

ترك الصحيفة تسقط. أغمض عينيه. راقبتُ كيف تجمَّع الماء في يديه. شكَّل منه كوبًا. تششششش، لقد أغرقه. كُنتُ مندهشًا. لا يوجد موظف يُعرِّض نفسه للمطر. كانت الحديقة في جميع أركانها ضبابية بغرابة. الناس يفرون في كل مكان. لا يوجد إنسان سَوِيّ يُعرِّض نفسه للمطر. بينما كان مبللًا بالكامل، بدا مستمتعًا تمامًا، وكأنه لم يذق طعم سعادة أكثر من تلك التي ذاقها وهو مبلل هكذا. حدقت بذهول في وجهه السعيد. فتح عينيه. نظر لي عبر المطر نظرة غير متوقعة. قفزتُ. لم أضع ذلك في الحسبان. تلك النظرة المفاجئة التي كانت تعرفني جيدًا. نظرة تحمل في طياتها: «أنا لستُ وحيدًا، أنت هنا». أغمض عينيه بعدها مرَّة أخرى.

18



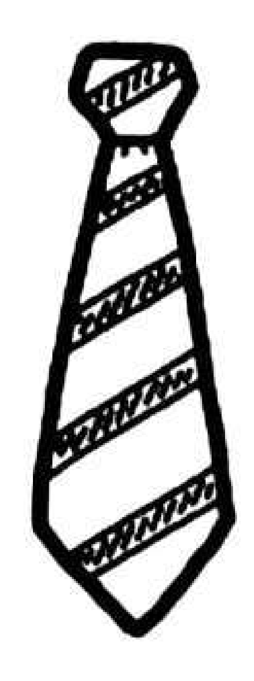
سَقطتُ من عالم أسراري، من مخبئي. لكن هذا ليس صحيحًا تمامًا. نظرته واعترافه الذي يشع منها خفَّفا فقط من الفضاء الموجود حولي شيئًا ما. في الصباح أومأ لي برأسه. أومأت له. في المساء أشار لي بيده عندما غادر. أشرتُ له أيضًا. اتفاقٌ صامت. أنت هنا. أنا هنا. لكل منَّا الحق أن يكون ببساطة هنا.

ما تغيَّر بيننا كان شيئًا واحدًا فقط. توقَّعتُ حدوثه. أنني الآن، وبعد أن لاحظني، أصبحت صورة بداخله. أصبح لديه الآن صورة عني، وكانت تحيته اليومية مُوجَّهة لهذه الصورة. كان يتفحصها بهدوء. لم تكن نظرته متطفلة. لقد أدرجني ضمن ذكرياته. يتذكر يومًا على البحر، والرمل الناعم، والعُشب الأشعث الذي ينمو فوق الكثبان الرملية، يتذكر لحية والده، وشعر ذقنه القصير الخشن، ضوء

معين يسقط على ظهر زوجته صباح يوم في أواخر الخريف، ابتسامة في نافذة محل بالصدفة، الفراء الدافئ لقطة تعانقه. كان لديه آلاف الذكريات، آلاف الصور، والآن، وبعد أن لاحظني، صرت إحداها.

سمحت له بذلك. أظهرتُ له جانبًا من وجهي، وقفتُ حتى يستطيع أن يلتقط صورة له. أنا أيضًا نظرتُ إليه. التقطت له المزيد من الصور بداخلي. هكذا تشكَّلت من معرفتنا في أصغر صورها صداقة في أصغر صورها.

19



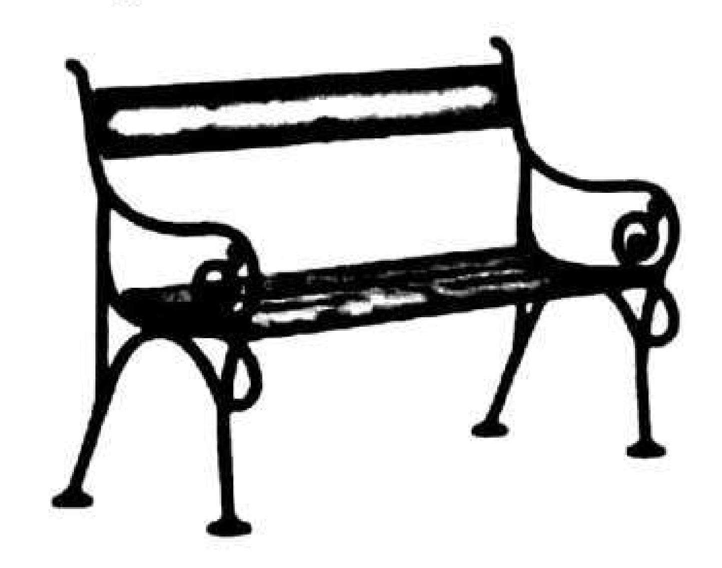
لو تحدَّثنا معًا في هذه اللحظة لأصبح الأمر تجاوزًا. كان بيننا حدٌّ، إنه طريق الحصى. هنا دكَّتي، هناك دكَّته. بيننا أعواد عشب، كرة تتدحرج، وطفل يتعثَّر وراءها.

حاولت لمدة سنتين نسيان كيف أتكلّم. أعترف أنني لم أنجح. اللغة التي تعلمتها تغلغلتني، حتى في صمتي كُنتُ بليغًا. كُنتُ أدير حوارات داخلية مع نفسي، لم أكلّ أو أملّ من التحدث في صمتي. لكن نغمة صوتي أصبحت غريبة عليَّ. أحيانًا كُنتُ أستيقظ ليلًا من كابوس غارقًا في عَرقي، لأجده وحده مستمرًا معي بعد أن أسمع صراخي الأجش «اااااه» الذي كان يخرج من معدتي، من رئتي، من حلقي. كُنتُ أسأل نفسي: «مَن هذا الذي يصرخ؟»، ثم أغفو مرَّة أخرى. أتجول في طبيعة يتلاشى فيها كل صوت بمجرد سماعه. كانت آخر جملة

نطقتها «لا أستطيع المواصلة بعد الآن». نقطة. نقطة متذبذبة. انغلق بعدها بابٌ ما. المجهود اللازم لمواصلة التحدُّث حيثما توقفت، كان يتعارض مع عدم جدوى صياغة أشياء لا يمكن التعبير عنها.

ما زالت غرفتي تُشبه الكهف. فيها نشأت. في الواقع، فيها فقدت براءتي. أقصد أن نشأتي كانت خسارة. يعتقد المرء منَّا أنه يفوز، لكنه في الحقيقة يخسر نفسه. شعرت بالأسى نحو الطفل الذي كُنتُ عليه ذات يوم، والذي سمعته في لحظاتٍ نادرة يلكم بقسوة داخل قلبي محاولًا الدفاع عن نفسه. عندما أتممت ثلاثة عشر عامًا، كان الأوان قد فات. أربعة عشر عامًا. خمسة عشر عامًا. كانت مرحلة البلوغ معركة، خسرتُ نفسي في نهايتها. كرهتُ وجهي في المرآة، كرهتُ الشيء المندفع الذي بدأ في النمو بداخله. انتشرت الندوب على يدي بسبب محاولتي إصلاحه. حَطَّمت عددًا لا يُحصى من المرايا. لم أكن أريد أن أصبح رجلًا يظن أنه يفوز. لا أرغب أن أنمو داخل بذلة أو أن أكون أبًا يقول لابنه: «يجب أن تؤدي المنتظر منك». صوت أبي كان صوتًا آليًّا. كان يؤدي المنتظر منه. عندما أنظر إليه، كُنتُ أرى مستقبلًا أموت فيه ببطء، ببطء شديد. لكنني رددت على نفسي: «لا شيء يسير كما كان منتظرًا»، ثم قُلتُ: «لا أستطيع المواصلة بعد الآن». كانت هذه الجُملة الأخيرة شعاري. الشعار الذي فُرض عليَّ.

20



هكذا جلست فوق دكَّتي مفروضًا عليَّ شعاري، عندما ظهر مُجددًا فجأة في تمام التاسعة. كان يوم خميس، أتذكر أنه جاء منحنيًا كمن يحمل عبئًا ثقيلًا. تصوَّرت أنه كَبر في العُمر بين عشية وضحاها. رأيتُ التجاعيد على رقبته، عندما أومأ لي برأسه. إيماءة تحمل بين طياتها: «ها هو أنت»». أومأت له أيضًا. والأكثر من ذلك، أومأت قبولًا لدعوته. أمرٌ غير مفهوم حتى بالنسبة لي، أومأت برأسي لمن كَبر في السن، ثم أومأت له مرَّة أخرى، عندما اقترب منِّي مترددًا ومتجاوزًا الحدود مُقدمًا لي سيجارة.

انحنى قليلًا تحيةً لي، وقال:

- «أوهارا تيتسو». تشرفنا. ألا تدخن؟ هذا جيد. من الأفضل ألا تبدأ في التدخين. إنه إدمان. أترى؟ لم يعد بمقدوري الإقلاع عنه.

جلس بجانبي، حقيبته بيننا. صوت الولاعة، نفخ الدخان. ثم أكمل حديثه:

- إنه أحد الأشياء التي لا أستطيع الامتناع عنها.

أومأتُ برأسي مرَّة أخرى، فقال:

- جرَّبتُ كل شيء، لكن دون جدوى. لا أستطيع الهروب منه. تنقصني الإرادة. أنت تعرف ذلك بالتأكيد.

صوته مبحوح. سعل. ثم واصل حديثه:

- جميع مَن في الشركة يدخنون. إنه الضغط الذي لا يتوقف أبدًا... في الشركة.

انحنى وأطفأ السيجارة. قضينا بقية الصباح على دكَّتنا صامتين. بإيماءة رأس، صارت الدِّكَّة دكَّتنا.

كان يمرُّ شخص بين الحين والآخر. أم تدفع عربة أطفالها. رجل يعرج. مجموعة صغيرة من التلاميذ المتهربين من المدرسة مرتدين الزي المدرسي. كل شيء كما هو. طيور تُحلِّق. استقرت فراشة لثوانٍ على الدِّكَّة المقابلة لنا. راقبناها والرياح تُحرِّكها بعيدًا، بينما كنا جالسين جنبًا إلى جنب. فكرة بسيطة تُبيِّن أنه لا رجوع بعد الآن.



قال وهو يُخرج وجبة «البينتو»:

- لقد أعدّتها زوجتي «فومي». دجاج مقلي مع سلطة البطاطا. إنها طباخة رائعة. ألا تعجبك الوجبة؟

ابتسم بحرج.

- يجب أن تعرف أنها تستيقظ في السادسة من صباح كل يوم لتجهّزها لي. تفعل ذلك منذ ثلاثة وثلاثين عامًا. السادسة من كل صباح. وأفضل ما في الأمر أن مذاقها جيد! فرك بطنه، ثم واصل حديثه متلعثمًا:

- مذاقها جيد جدًّا بالنسبة لشخص مثلي. أنا محظوظ. أليس كذلك؟

بهذه الكلمات بدأ تناول طعامه.

في خيالي، رأيتُ زوجته «فومي» واقفة في المطبخ في ثوب النوم. طرطشة زيت مغلي. لطخة من ماء المخلل على كُمِّها. تفرم الطعام وتقلِّبه، تقشِّر، وتقطِّع، وتملِّح. البيت ممتلئ عن آخره بأصوات فرم الطعام وتقليبه، والتقشير، والتقطيع، والتمليح. يستيقظ ولا يزال شبه ناعس. يعتقد أنه محظوظ. يعتقد ذلك بحزن يكاد يتحمل شدته: «أنا محظوظ حقًّا». ينهض. يذهب إلى الحمام. ينحني أمام الحوض ويفتح الماء البارد، البارد جدًّا. يضع وجهه، وشعره، ومؤخرة عنقه تحته. يزيد من الماء. يرفع رأسه. ثم يضعها تحت الماء مرَّة أخرى. يظل تحت الماء. يغلق الصنبور. يبقى منحنيًا. يسمع خرير الماء في البالوعة. يفتح الصنبور. يغلقه. يفتحه. يغلقه. يشاهد كيف ينقسم الماء إلى قطرات، والقطرات إلى رذاذ. بقعة معجون أسنان على حافة الحوض. لونها أبيض على سطح أبيض. غمس إصبعه بها...

- و«فومي» لا تعرِف...

تجشُّؤ بسيط. تحدَّث كما لو كان يكلِّم نفسه:

- «فومي» لا تعرف أنني آتي إلى هنا. لم أخبرها.

ثم قالها بِمَدٍّ في الأحرف:

- لم أأأخبرها أأأنني فقدت وظييفتيي.

22



أخذنا استراحة. أصبحتُ مُتواطئًا معه. بمجرد أن كشف لي سرَّه، صرنا حلفاء. إنه الثقل الموجود في قدمي، استحالة النهوض والذهاب بعيدًا دون رجعة. لقد استأمنني، استأمنني وحدي. نظرتُ إلى الحذاء الذي يضيق بي. كان باليًا. مدَّ قدميه أمامه على بُعد نصف متر. جلد أسود ملمَّع. ثم خطر ببالي فجأة؛ إنه حذاء والدي. هل يشتاق أحيانًا إلى أن يستأمن شخصًا ما؟ لاحظتُ ببعض المرارة أنني أعرف عنه أقل مما أعرفه عن ذلك الشخص الذي عرفت اسمه قبل أقل من ثلاث ساعات. ها هو سبب إضافي يدفعني للبقاء جالسًا بجواره، والإيماء له مرَّة أخرى.

عاد للحديث عن الموضوع مجددًا:

- شيءٌ غريب. لم أكن أريد إخفاء الأمر عن «فومي». لا، لقد أردتُ إخبارها. لكن بعد ذلك لم أرغب في أن أتسبَّب لها بألم. منعني شيء ما. ربما التعوُّد...

الدخان الرمادي يخرج من فمه.

- ...التعوُّد على الاستيقاظ مبكرًا وغسل وجهي. كانت تربط لي الكرافتة. أقول لها أثناء خروجي: «يوم سعيد». ترد عليَّ: «يوم سعيد عليك أيضًا». كانت تلوِّح لي بيدها. ألتفت إليها مرَّة أخرى عند أول منعطف. هيئتها من أمام المنزل تُشبه العَلَم المرفرف. كان بإمكاني العودة إليها، لكنني أرى الباص. أصعد إليه. أنزل عند محطة القطار، آخذ القطار السريع، ثم المترو.

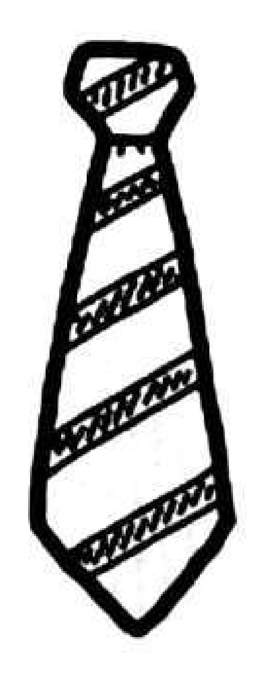
ثم قال ضاحكًا:

- بطريقة أو بأخرى يسير الأمر على ما يُرام. أمَّا أنا فلا.

ما زال يضحك.

- الأمر يسير على ما يُرام.

23



- وماذا عنك؟ ما الذي يقودك إلى هنا؟

حرَّكتُ كتفي إلى أعلى وأسفل. سألني:

- ليس لديك فكرة؟ إممم، لكنك ما زلتُ شابًّا. لديك ثمانية عشر عامًا؟

كُنتُ أتجمَّد.

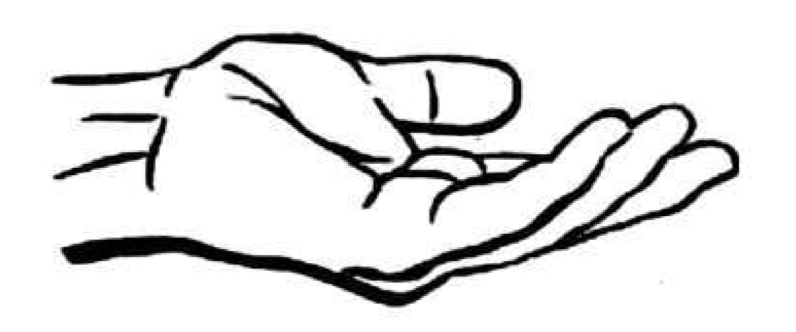
- تسعة عشر؟ عشرون؟ أنت صغير للغاية. ما زال أمامك بالتأكيد كل شيء. لم يفُتك شيء بعد.

تنهَّد.

- لا أصدق أنني كُنتُ في يوم من الأيام صغيرًا هكذا. لكن...

وماذا في ذلك؟ أقصد أن لكل إنسان عُمرًا واحدًا فقط. أنا مثلًا كُنتُ، وما زلتُ، وسأظل دائمًا أبلغ ثمانية وخمسين عامًا. أمَّا أنت، فاحذر أي عُمر ستختار. سيلصق بك. سيتمسَّك بك تمامًا. العُمر الذي ستختاره مثل الغِراء، سينشف حولك. لست أنا مَن وضع هذه الحكمة. قرأتُها في كتاب أو سمعتُها في فيلم. لا أتذكر. الإنسان منَّا يتذكر الكثير من الأشياء العابرة. أمرٌ لا يُصدَّق. يظل مدى الحياة يتذكَّر أشياءً.

فكَّرتُ مليًّا فيما قاله أثناء قراءته الصحيفة. كلما زاد تفكيري في كلامه، تسقط كلمة «ماذا» وتحل مكانها «كيف»، تلك الكلمة التي أسرتني. نبرة صوته التي أضاف بها مذاقًا مريرًا لكلماته. سواء كلمة «صغير» أم «للغاية». كلتاهما حملت بين طياتهما، بالطريقة التي قالهما بها، لمسة قاسية. كلتاهما كانت - كما سمعتهما - كلمة واحدة، الكلمة نفسها. اعتقدتُ أن هكذا يتحدث المرء بعدما يصمت لفترة طويلة. كل الكلمات صارت واحدة، ولا يستطيع أحد أن يعرف الفرق بينهما. سواء كانت «غِراء» أم «حياة»، لا يمثل الأمر فارقًا كبيرًا.



جاء نومه مفاجئًا. باغته أثناء قراءته الصفحة الثانية من القسم الرياضي. غفا مستندًا إلى الخلف ورأسه متدلٍ، باسطًا راحة يده على صورة فريق «چاينتز». رأيت على يده شبكةً من الخطوط. خطٌّ يتقاطع مع خط القلب. حبر طباعة أسود على سبَّابته اليُمنى. بدا مرَّة أخرى كالطفل. بريء، غير مُعتنى به. شعرت مرَّة أخرى بالرغبة في تغطيته، إنها الرغبة الفطرية التي شعرتُ بها دائمًا في أن أمنع الأذى عنه.

عندما استيقظ، كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة والنصف. تَمَطَّى مُتثائبًا، ومسح التراب الذي تراكم على عينيه. ثم قال غامزًا:

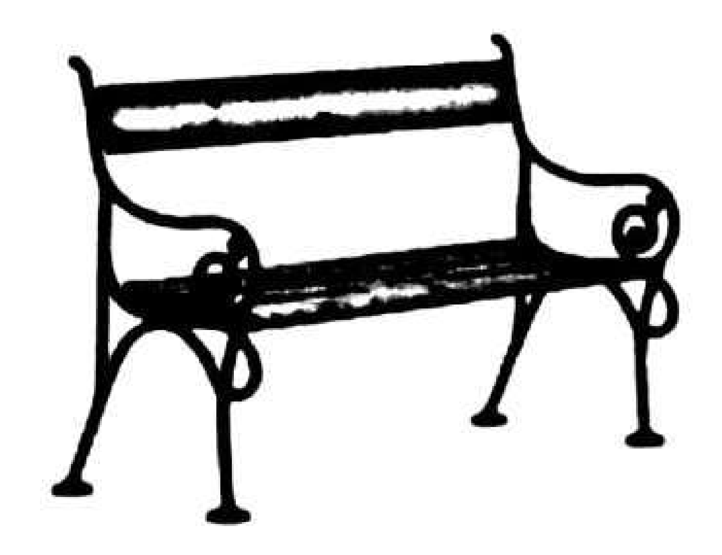
- ما زال أمامي بضع دقائق حتى ينتهي اليوم. لا ساعات إضافية اليوم، لا ساعات إضافية.

طوى الصحيفة.

- «أجمل ما في العمل هو العودة إلى المنزل». إنها أول جملة أنطق

بها عندما أدخل من الباب، وأقف في مدخل المنزل. رائحة الثوم والزنجبيل. خضروات طازجة مطهوّة بالبخار. أقف في مدخل المنزل، وأدع هذه الرائحة تملؤني، ثم أقول: «أجمل ما في العمل هو العودة إلى المنزل». تُوبِّخني «فومي» على ذلك، وتنعتني بـ«أنت أحمق». كانت تخرج كلمة «أنت» من فمها وكأنها أكثر كلمة «أنت» حنونة قد تسمعها. لم أسمع فيها إهانة على الإطلاق. هل تفهمني؟ كان بإمكانها أن تصفني بما هو أسوأ بكثير؛ كاذب، مخادع. حتى وإن فعلت ذلك، أتمنى بشدة أن تكون بالحنان نفسه الذي تقول به «أحمق». وعلى الرغم من... أفضّل ألا أعرف. ما دام هناك أمل، لا أريد أن أعرف كيف سيكون رد فعلها حينما أخبرها بالحقيقة. ولِمَ أخبرها من الأساس؟ إنها تستحق أفضل من ذلك، أفضل بكثير من الحقيقة.

25



السادسة إلا خمس دقائق.

عدَّل كرافتته. لم يكن متعجلًا. بل بدا مضطرًا لأن يكبح جماح نفسه. حصان مُلْجَم يمزِّق زمامه بنفسه. ظل يرفع ذراعه، شمَّر كُمَّي قميصه قليلًا، ثم نظر إلى الساعة.

- سأذهب الآن. السادسة إلا ثلاث دقائق. لا، سأنتظر قليلًا. السادسة إلا دقيقتين. يجب أن أذهب الآن. السادسة إلا دقيقة. هل سأراك غدًا؟

أومأتُ برأسي مُوافقًا.

قال بصوت خفيض، يكاد يكون غير مسموع:

- أشكرك.

نظرة أخيرة على معصمه. تمام السادسة. انتفض واقفًا. قلّدتُه. وقفنا وجهًا لوجه، لدينا الطول نفسه.

- إلى اللقاء.

كان صوتي بعد سنتين من الصمت شفافًا كالزجاج.

- إلى اللقاء.

كان هذا كل ما قلته. تلاقٍ غير سلس بين الحروف. صمتُّ مرّة أخرى، ثم خَرجت مني جُملة:

- اسمي «هيرو تاجوشي»، عُمري عشرون سنة. عشرون عامًا، إنه العمر الذي اخترتهُ لنفسي.

انحنيتُ تحيةً له، وظللتُ هكذا بشكل غير ملائم إلى أن غادر. شعور غريب بالرضا؛ ما زال بإمكاني فعل ذلك. أن أعرِّف نفسي للآخرين. لم أنسَ كيف أفعلها. حتى لو كان صعبًا أن أنطق باسمي الذي بدا وكأنه سيذوب على لساني.



في طريق عودتي إلى المنزل، واصلتُ تتبُّع خيوط قصته. ربما لم يكن محتاجًا سوى إلى أن يستأمنني على سرِّه، ربما سيعود إلى منزله، ويحكي لزوجته كل شيء بصراحة. ربما لا. ربما سيؤجل هذه الخطوة حتى تنفد آخر مُدَّخراته. ربما سيحدث ما كان ينتظره، أن تكتشف «فومي» أمره. أن تستيقظ في يوم من الأيام متملكها شعور بالقلق، شعور بوجود خطأ ما. تبدأ في استقصاء الأمر، ثم تكتشف السر، وتواجهه ليشرح لها موقفه. ربما كنا نحن الاثنين متشابهين بهذه الطريقة. كلانا شاهد كيف يخرج كل شيء عن السيطرة دون أن يُحرِّك ساكنًا، وشعرنا بارتياح خفي لعدم قدرتنا على تصحيح الأمور. ربما هذا هو السبب الذي جمعنا ببعض. لندرك في الوقت نفسه، وبشكل لا يمكن إنكاره، استحالة إعادة الأشياء إلى نصابها، سواء من هنا، أم في هذه اللحظة. ولعل هذا هو السبب في كون قصته قصتي

أيضًا. القصة التي تحكي عن شيء لم يفعله، ومن ثم لا يمكن إعادته لنصابه مرَّة أخرى.

أناس كثيرون ذاهبون إلى منازلهم. كثير من الأحذية تسير بخطوات عسكرية مُتزامنة، أما أنا نخرجتُ عن الإيقاع. أمامي وتحت عمود نور الشارع، رأيتُ أبي قادمًا من عمله، يسير بجانب شجرة مُزهرة، وعيناه تُحدِّقان في الأرض. لم يرني. اختبأتُ في الوقت المناسب وراء ماكينة بيع المشروبات. أردتُ أن أوفِّر علينا إحراج أن نقابل بعضنا بعضًا في العلن، وليس لدينا ما نقوله. بمجرد أن انعطف عند الناصية، شعرتُ بالأسف أنني لم أقُل له «مساء الخير» على الأقل.



- يوم رائع، أليس كذلك؟ عندما تكون السماء شديدة الزُّرقة هكذا، فإن أفضل ما يمكن فعله هو الذهاب إلى البحر. يا خسارة!

نظر إلى أسفل، إلى نفسه، وهو يهزُّ رأسه يمينًا ويسارًا.

- لديَّ وقت فراغ، لكنني لستُ حُرًّا. على كل حال، غدًا يوم جديد.

جلس. تنهَّد.

- حسنًا يا «هيرو تاجوشي». لقد ظننتك أبكم، وسأعترف لك؛ لو كُنتُ كذلك، لما مثَّل الأمر لي - بطريقة أو بأخرى - أي مشكلة. بالطبع لا أقصد ذلك حرفيًّا، إذا كُنتَ تفهم ما أعني.

حكَّ ذقنه. أمام الأشجار الموجودة وراءه، مدَّت عدَّاءة ذراعيها في

الهواء، ثم واصلت الهرولة مُرتدية عصابة رأس حمراء. جاء صوت كلاكس سيارات خفيض مستمر من الطريق. صوت السيارات يرتفع ثم ينخفض. كان يتشابك مع الشجيرات الموجودة حولنا باقيًا خارج الدائرة الأعمق التي تطوقنا.

واصل حديثه فجأة:

- بطريقة أو بأخرى، لم يكن الأمر ليمثّل لي مشكلة لو عرفت «فومي» أنني آتي إلى هنا. كانت ستواسيني فكرة أنها تعرف الأمر، بغريزتها، من أعماقها. لو أنها على عِلم بالأمر، ستكون شريكتي في الجريمة، لقد شاركتني من أجل مصلحتي. أمر مثير للشفقة، أليس كذلك؟ فكرة أنها تشاركني بمحض إرادتها. صباح اليوم، عندما ربطت لي الكرافتة، قالت لي بجدية: «يا ليتنا مجنونان بما فيه الكفاية لنتصرف بطريقة مختلفة». ثم قالت: «لنتحرر لمرة واحدة»، ثم أخذتْ نفسًا قصيرًا. كانت تلك اللحظة المناسبة لأعترف لها أنني تحررتُ منذ فترة طويلة. لكنها كانت قد انتهت من ربط الكرافتة، فلم يتبقَ لي سوى الخزي. شعرتُ بالخزي من خزيي. كم من مجهود بذلته لأخفيه عن نفسي وعن «فومي». لأن الأمر كان كالتالي؛ أنا لم أفقد وظيفتي فقط. الخسارة الأكبر كانت خسارتي لاحترامي لذاتي. بهذه الخسارة بدأت كل الخسائر الأخرى. عندما تقف في نهاية رصيف محطة

القطار المكتظ بالركاب، وترى أضواء القطار الذي يقترب، فتجد نفسك تحسب اللحظة التي تعني فيها أي قفزة على قضبان القطار موتًا محققًا. تأخذ خطوة إلى الأمام. تشعر بأنها اللحظة المناسبة! الآن! الآن! ثم، لا شيء! يا لها من «لا شيء» قاتمة! حتى ذلك لا تستطيع فعله. القطار يتحرك. مليء بالركاب. تنعكس صورتك في نوافذه التي تمر أمامك ببطء، فلا تعود قادرًا على التعرُّف إلى وجهك بعدها.



- حسناً!

اعتدل في جلسته.

- كفى. أنا أتحدث كثيراً. لا بد أنك تظنني لا أستطيع التوقُّف عن الكلام. كفى حديثاً عنِّي. الآن حان دورك. احكِ لي شيئاً.

- أحكي ماذا؟

- لا يهم. أول ما يتبادر إلى ذهنك. كلي آذان صاغية.

وبهذه الجملة، اتَّكأ إلى الخلف، وبدا فعلاً أنه لا ينوي فعل أي شيء سوى الإنصات لي.

- من أين أبدأ؟

بحثتُ عن كلمة تضاهي أهمية آخر كلماته. ثم قُلتُ:

- أمر صعب.

أول ما تبادر إلى ذهني هو أن حكي شيء ما أمرٌ صعب. كل إنسان عبارة عن مجموعة من القصص. أمَّا أنا. فترددَّتُ. شعرتُ بالخوف من تجميع قصصي. تمنيتُ لو كُنتُ قصة خالية من الأحداث.

لنفترض أنك سترمي نفسك صباح الغد أمام القطار. ما قيمة ما سأحكيه لك اليوم؟ وهل له قيمة من الأساس؟ كما قلت، أمر صعب. أول ما يتبادر إلى ذهني... أننا نتزلق على جليد يذوب.

- جُملة جميلة.

كرَّرها مرَّة أخرى:

- أننا نتزلق على جليد يذوب. هل هذه جملتك؟

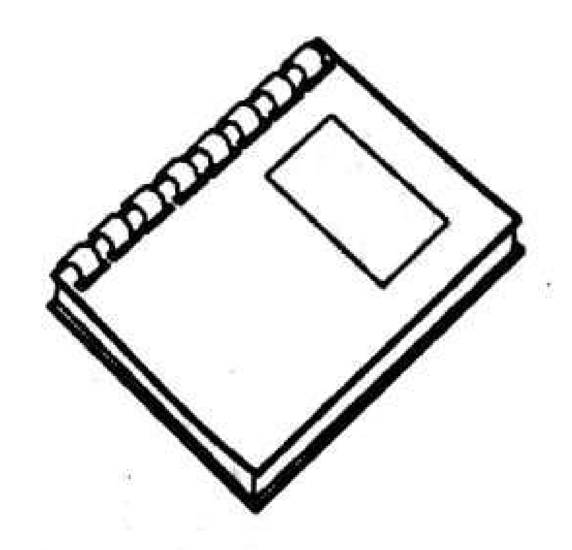
- لا، ليست جُملتي. إنها جُملة «كوماموتو»...

بلعت رِيقي، وأكملت:

- «كوماموتو أكيرا».

غمرني الكلام. كُنتُ مجرى نهر تساقطت عليه أمطار غزيرة بعد سنوات من الجفاف. تمتصها الأرض بسرعة دون توقف. يرتفع الماء أكثر فأكثر، يفيض على الضفتين، يقتلع الأشجار والشجيرات، يتسرَّب إلى اليابسة. شعرتُ بالتحرُّر مع كل كلمة نطقت بها.

29



- كان «كوماموتو» يكتب قصائد شعرية. دفاتره المدرسية كانت مليئة بها. كان في بحث دائم عن القصيدة المثالية، إنها الفكرة المسيطرة على عقله. كان يجلس واضعًا قلم رصاص وراء أذنه، مُنعزلًا تمامًا عن العالم. كان شاعرًا بكل ما تحمله الكلمة من معنى، كان هو القصيدة نفسها.

كنّا في الفصل نفسه، في آخر عام لنا من مرحلة إتمام التعليم المدرسي. كلانا تحت الضغط نفسه، ضغط اجتياز هذه المرحلة. لكنه تعامل مع الأمر بطريقة أبسط منّي أو دعنا نقل إنه تظاهر بذلك. كان يقول مازحًا: «*لماذا أتعلم ما دام طريقي مرسومًا سلفًا؟ الأمر واضح. مثل آثار خطى أولئك الذين سبقوني. جدّي الأكبر، جدّي، والدي. كلهم محامون، لقد مهّدوه لي. لستُ مضطرًا أن أتعلم أي شيء. لقد فعلوا ذلك مسبقًا من أجلي. لم يكن عليَّ سوى اجترار*

ما فعلوه، ثم أتقيأه بعد ذلك. هذا ما أدين لهم به. انظرا!».

أراني واحدًا من دفاتره المدرسية، ممزقًا. كان والده يرى أن المجتمع ليس بحاجة إلى غريبي الأطوار.

- حسنًا، إنه على حق. لكنني لا أستطيع فعل شيء حيال ذلك. قضيتُ ساعات للصقه مرّة أخرى.

قرأتُ أسفل أحد الأشرطة اللاصقة:

«الجحيم بارد»

كان يقول إنها أكثر السطور التي كتبها كمالًا حتى الآن.

«نار الجحيم ليست نار تدفئة».

«كنتُ أتجمَّد فيها حتى الموت».

«لا يوجد مكان تُضاهي برودته برودة هذه الصحراء المُلتهبة».

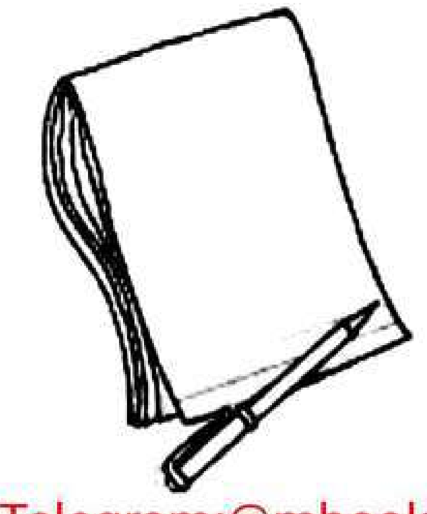
خطوط قلم رصاص سميكة محفورة على ورق رقيق. كانت بعض القصاصات مفقودة في بعض المواضع. قال «كوماموتو»:

- لا يهم.

ثم ضرب ثلاث مرّات على صدره قائلًا:

- إنها بالكامل هنا. قصيدة الرثاء التي كتبتُها.

30

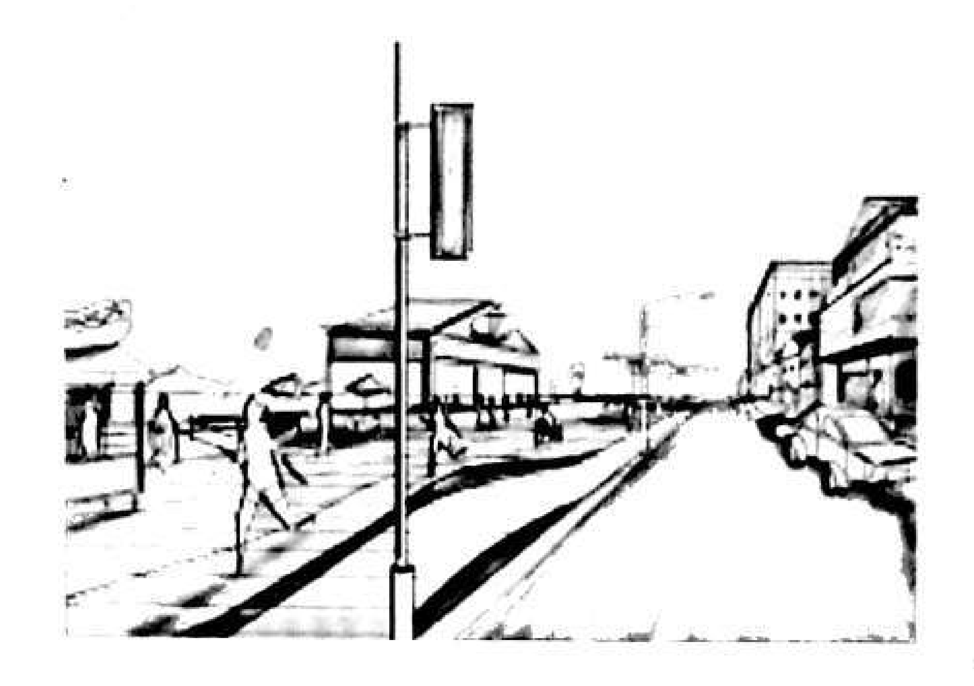


- في البداية لم أفهمه. كُنتُ أفهمه قليلًا مثل القصائد التي يكتبها بالضبط. أقرؤها وأفهم كلماتها. فهمتُ «الجحيم» و«النار» و«الجليد»، أمَّا الشقاء الذي تصفه هذه الكلمات فلا يمكنني فهمه إلا إذا قرأتها بالعمق نفسه. لكنني خشيتُ من فعل ذلك، لأنني شعرتُ بأنني قابع بالفعل في هذا الشقاء، لم أرغب في الاعتراف بذلك. على أي حال، لو كُنتُ فهمته حينها، لربما اختلفت الأمور. لكن مَن يدري؟ مَن يدري ما الشيء الجيد، وإذا كان يهم أنه جيد؟ حسبما أتذكر، «جيد» هي كلمة لم يستخدمها «كوماموتو» قط.

على الرغم من ذلك، أصبحنا صديقين. صديقين مقربين. كُنتُ معجباً بعزيمته. كان يشع منه ضوء إنسان يعرف بالضبط إلى أين يذهب، وأنه سيكون، أينما ذهب، وحيدًا بشكل مُفزِع. لم يُلقِ بالًا لآراء الآخرين. كان يضحك مع أولئك الذين يسخرون منه. وهو ما

فعله أيضًا مع والده عندما قال له: «*معك حق، لكنني لا أستطيع فعل شيء حيال ذلك*». قالها غامزًا. كانت جُملة ذات مسحة ساخرة.

ما الذي أعجبه فيّ؟ لا أعلم. ربما أعجبه أنني كُنتُ متعلقًا به تمامًا. كُنتُ أثق به وبابتهاجه. كُنتُ أثق أن هناك شخصًا سيظل شابًا دائمًا، سيبقى بعد موتي، وشعره أبيض كالثلج، يحلم بالقصيدة المثالية.



كنا نلتقي عادةً في المساء. لطالما أحب الغسق. كان يقول إن الضوء حزين وسعيد في الوقت نفسه. ينعى اليوم الذي مرَّ، ويتطلع إلى الليل الذي جنَّ. ذات يوم، مشينا في الشوارع بلا وجهة مُحددة. جرَّني «كوماموتو» وراءه، تحوِّطه رائحة منظر طبيعي غريب. رائحته تشبه الأراضي التي تجمَّدت تمامًا على عُمق عدة سنتيمترات، رائحته تشبه نباتات غريبة مختبئة تحت هذه الأراضي. تساءلتُ: كيف ستكون الرائحة على السطح، عندما تنمو هذه النباتات؟

كانت الإجابة: التقاطُع.

توقَّف «كوماموتو». يشع فوقه إعلان شامبو مكتوب بأحرف من النيون. الرجال والنساء يمرون من حولنا. كنَّا جزيرة وسط أمواج مُتلاطمة. طوَّقني «كوماموتو» فجأة، عانقني بشدة. أمسك ذراعيَّ

بيديه، وصاح:

- وجدتُها، لا توجد قصيدة مثالية! إن كمالها يكمن بالضبط في عدم كمالها. هل تفهم ما أقول؟

لم أكن أريد أن أفهم ذلك. همس في أذني:

- لديَّ صورة في رأسي. أراها أمامي بوضوح. ألوانها ساطعة بشدة. لكن بمجرد أن أدركتها تمامًا، انفجرت، وما أكتبه ما هو إلا بعض الأجزاء التي لا تُشكّل الكُل. هل تفهم الآن ما أقصده؟ الأمر يشبه محاولتي لصق أجزاء من زهريَّة مكسورة. لكن الشظايا أخذت تتفتت لدرجة أنني لا أعرف المكان الذي تنتمي إليه كلٌّ منها، وكيف أضعهم جنبًا إلى جنب. دائمًا ما تتبقى شظية. لكنَّ هذه الشظية هي التي تُشكّل القصيدة! هي وحدها مَن تجعل للقصيدة معنى.

شعرتُ بحُمَّى في صوته.

- ستكون قصيدة الرثاء التي أكتبها زهرية، يندفع الماء عبر الشروخ الموجودة فيها بعدما تمَّ رأبها.

أبعد يديه عن ذراعي فجأة. تمايلتُ. شعرتُ ببصمة أصابعه على ذراعي.

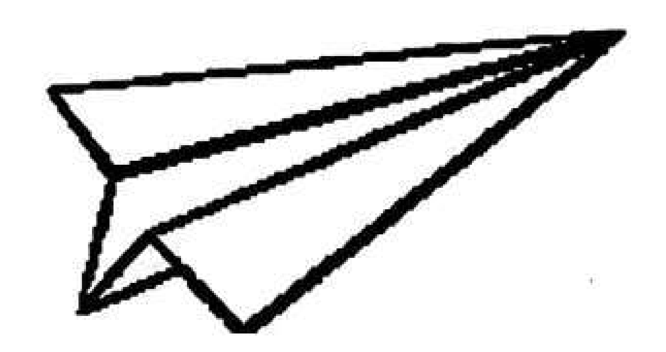
همستُ:

- أنت مريض حقًّا.

- أنت أيضًا.

كان تحذيرًا. سمعتهُ وتجاهلتهُ.

32



- بعدها بأيام، في حصة الفيزياء، مرَّر لي «كوماموتو» خلسة ورقة صغيرة مكتوبًا عليها:

«اليوم الساعة الثامنةَ. عند التقاطع. أريد أن أصحّح خطئي».

ما زلتُ مُحتفظًا بالورقة. أعرف أين توجد في غرفتي بالضبط، في أي درج. تحت حَجر عتيق محبوس فيه حشرة. أُخرج الورقة بين الحين والآخر وأقرؤها كلمة كلمة مثل التلاوة في الصلاة:

«اليوم الساعة الثامنة. عند التقاطع. أريد أن أصحح خطئي».

ماذا عن مرضه؟

أعتقد أن مرضه كان إرادته المُطلقة. كان يريد الكثير. أراد أن يستدرك خطأه. كان يعلم أنه لا يستطيع ردَّ ما يدين به لآبائه، ويعلم أن بهجته لن تدوم للأبد. لا يُمكن أن يظن الإنسان للأبد أنه لا يستطيع فعل شيء حيال ذلك. عند عُمر معين، لم يكن يريد الوصول

إليه، عليك أن تدرك أنه يمكنك فعل شيء حيال ذلك. هذا هو مرضه؛ أدرك في سن صغيرة للغاية أن لا شيء كامل. كان أصغر من أن يصل إلى استنتاج صحيح، وهو أنني مصاب بالمرض نفسه، ربما كان يرغب في تحذيري منه.

عندما غادرتُ المنزل في ذلك المساء، كان الهواء رطبًا وخانقًا. كان كالوشاح المبلل الملفوف حول الجسد. كُنتُ متوترًا، جريتُ، تحت قدميَّ الأسفلت الأملس. لمحته من مسافة بعيدة. أدار وجهه نحوي. نظر إليَّ نظرةَ حارقة. رفع يده، وصاح بشيء ما. فتح فمه وأغلقه. لم أفهمه. غطَّى ضجيج الشارع على صوته، فتلاشى صياحه قبل أن يقفز كالسبَّاح في الحركة المرورية دون الالتفات حوله، كل ذلك أمام عينيَّ المتابعتين لما يحدث. مدَّ يده لأعلى. صرير الفرامل. ظلَّت يده لثوانٍ في الهواء، ثم سقطت على الأرض. صرخ أحدهم:

- *حادث!*

وصلتُ لاهثًا إلى موقع الحادث. صدمني أحد الواقفين بمرفقه. استطعتُ الرؤية عبر مجموعة من المارَّة. إنه «كوماموتو»، مُغطَّى بالدماء. يده بيضاء نحيلة. صفارات الإنذار. تراجعتُ. شعرتُ بأنني أعمى. أصبتُ بالعمى. تم دفعي بعيدًا.

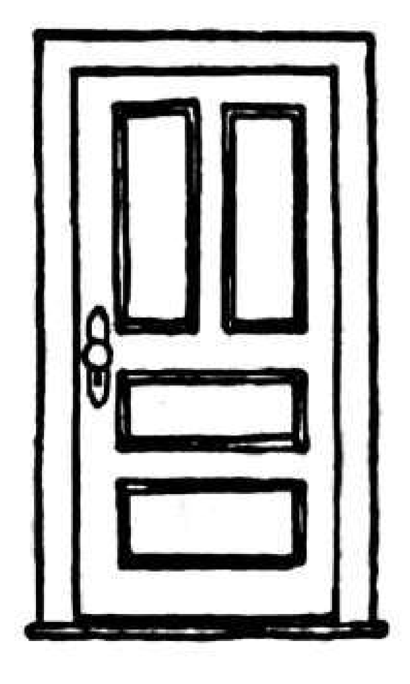
- *أنت! هل كل شيء على ما يُرام؟*

كنت مُلقى على رصيف المشاة، بجانبي كيس قمامة مُفرقع. به لحم فاسد. فقدت وعيي. عندما استعدتُه، لم يكن «كوماموتو» موجودًا. فوقي إعلان لأقنعة الوجه. سألني أحدهم:

- هل كل شيء على ما يُرام؟

نهضتُ وغادرتُ.

33



- عُدتُ إلى المنزل. شعرتُ برجليَّ ترتجفان. رأيتُ عينيه في وجه كل شخص صادفتُه. «كوماموتو» في كل مكان. أجساد سميكة، تحتها عظام وأعضاء، لا شيء يدوم. موته - لو كان مات بالفعل - منحني القدرة على قراءة أفكار ومشاعر الآخرين. أتذكر المرأة التي مرَّت أمامي. كانت جميلة، ممشوقة القوام. نَظَرتُ إلى ظهرها وراقبتُ متنهدًا عمودها الفقري المتمايل في مشيتها. هذا العمود الفقري الذي أدرك فجأة أنه يميل في حركته نحو الموت. أتذكر الرجل الذي جرى نحوها، وأخذها تحت ذراعه، وقبَّل يديها. كان هو الآخر عبارة عن رماد وتراب. والداي. أتذكرهما. كانت أمي هيكلًا عظميًا يجلس أمام التليفزيون. أبي، هيكل عظمي يشرب بيرة بالرغوة.

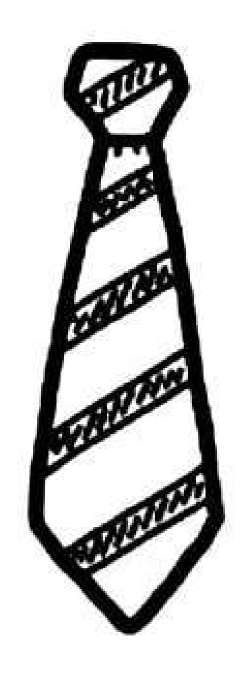
- *آه، أخيرًا وصلت.*

كانا يشبهان جُمجمتين عاريتين تُحدّقان بي عبر ثقوب جاحظة. قالا لي:

- لن تصبح شيئًا! تتسكَّع في وقت متأخر من الليل. هل نسيت مستقبلك؟!

قضم أبي قطعة نقانق نيئة. أسنان مُفترِسة. تَرنَّحت عبر الردهة. تبعني ظِلي حتى غرفتي. انغلق الباب بهدوء.

34



- خُذ رشفة. عليك أن تشرب شيئًا.

قالها الكرافتة مُعيدًا ذهني إلى الحديقة. رأيت مجددًا الخطوط الرمادية والحمراء على صدره. قال لي:

- اشرب ببطء، هذا جيد.

كنتُ سعيدًا لأنه لم يقل أكثر من ذلك. لأنه ما الذي يقوله الإنسان عندما تنفد منه الكلمات؟

- بعد أن انغلق الباب خلفي، شعرتُ بفراغ صامت. استلقيتُ صامتًا، جريتُ في أفكاري مرَّة أخرى باتجاه التقاطع. فم «كوماموتو». بمَ صاح؟ حاولت مرارًا وتكرارًا قراءة حركة شفتيه، فشلت المحاولات الواحدة تلو الأخرى. هل كانت كلمة؟ كلمة

مثل «الحرية»؟ أو «الحياة»؟ أو «السعادة»؟ هل كانت كلمة «لا»؟ أم «نعم»؟ هل هي تحية عابرة؟ ربما «وداعًا»؟ هل كان اسمي؟ أو «أبي»؟ ربما «أمي»؟ أو شيء ما غير مهم، لن تجدي الرغبة في معرفته.

قضيتُ باقي الليلة سابحًا في عالم آخر. لم أنم، لكنني نمت نوم السائرين في أحلامهم. بمجرد أن أغمضتُ عينيَّ، رأيتُ في غرفة ذاكرتي المُظلمة يدًا، يد «كوماموتو»، كيف بزغت، كيف خرجت وحيدة بشكلٍ مخيف من الأسفلت الأسود. أشارت إليَّ. من بين كل الواقفين أشارت إليَّ. وأكثر ما أفزعني ذلك الشعور الجيَّاش بالخزي، الذي حلَّ بداخلي فجأة؛ «أنا لا أعرفه. إنه لا يخصني». سعدت أنني دُفعت بعيدًا، بعيدًا عنه، ذلك المستلقي المتألِّم على الأرض. تبدَّد الخزي فجأة، مثلما حلَّ فجأة. لكن ذلك لن يساعدني في إقناع نفسي فيما بعد بأن ما فعلته كان رد فعل طبيعيًّا. كان الخزي موجودًا، شعرتُ به، لازمني، صاحبه شعور بالغضب؛ لماذا فعل «كوماموتو» أمرًا يخصني أنا وهو فقط علانيةً؟ لماذا أجبرني على هذا الشعور بالخزي الجبان؟ أقسمت ألا أفعلها مجددًا، لن أورِّط نفسي مع أي شخص آخر. لن أزج بنفسي في مصير أي شخص أبدًا. أردتُ أن أدخل غرفة خارج الزمن، حيث لا يضايقني أحد من جديد. بالتأكيد ستستمر الحياة خارج هذه الغرفة. أردتُ منع الحياة

من الدخول، أردتُ التسلل والاختباء منها، ألا أسمح بحدوث هذا الأمر معي مجددًا. اخترقت إحدى الشظايا وعيي، إنها الشظية التي جعلت لقصيدة رثاء «كوماموتو» معنى.

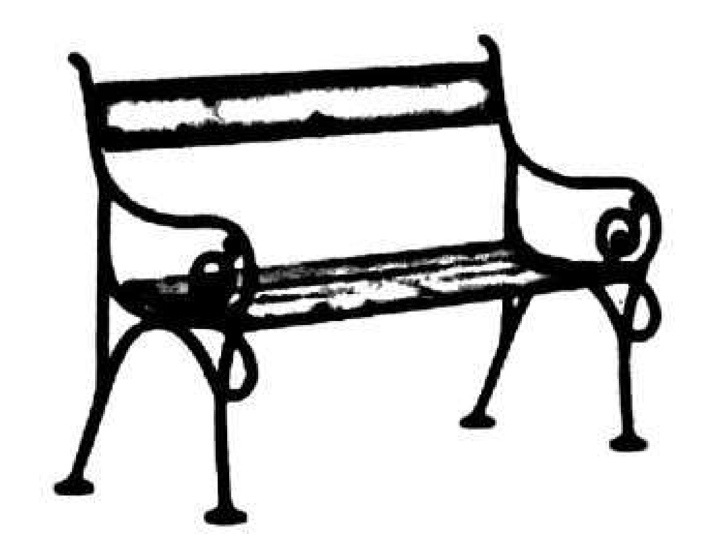


- في صباح اليوم التالي، ظللتُ مُستلقيًا على سريري. لا جديد. كُنتُ أتغيَّبُ كثيرًا عن المدرسة. أحيانًا كُنتُ أبقى في المنزل لثلاثة أو أربعة أيام. وبفضل مبرراتي الوجيهة تركوني وشأني. أهم شيء أن أعود إلى المنزل بدرجات جيِّدة. سرعان ما عوَّضت الحصص التي فاتتني مُستغلًّا آخر جزء من الحماس المتبقِّي بداخلي.

هذه المرَّة كان الأمر مختلفًا.

مرَّ أسبوع. شعر والدايَّ بالقلق. في الأسبوع التالي، شعرا بالغضب، وبعدها بأسبوع باليأس. يأسٍ طويل. ثم عاد الشعور بالغضب مرَّة أخرى. وفي النهاية شعرا بالقلق. وهكذا ظلت مشاعرهما متباينة إلى أن صرتُ غير قادر على التميز إذا ما امتدت الأسابيع لشهور

أو الشهور لسنوات. كُنتُ أغلق باب غرفتي بالترباس. يستمران في طَرقٍ غير مُجدٍ على الباب، لم أرد عليهما. اكتسب طَرْقهما نغمة رمادية أو سوداء أو بيضاء وفقًا لشعور والديَّ، سواء بالقلق أم الغضب أم اليأس. كانت مشاعرهما تلوِّن السكون الذي امتصَّني، الذي يُشبه سكون غابة مُظلمة. تسير فيها عبر طريق ضيق مُتعرِّج، قمم الأشجار متمايلة، تسقط الشمس بميل عبر أفرعها. تتلألأ في أشعتها خيوط عنكبوت، خيوط رفيعة ذات تكوين بديع. أي شخص سيقول: «يا له من مكان هادئ!»، لكنه سيدرك بعدها بلحظة أنه كان مخطئًا. سكون الغابة هو سكون صاخب. ممتلئ بأصوات الطيور. تصدُّع الخشب الهش. طنين الخنافس. سقوط ورقة رقيقة في دوائر. أصوات تُشبه الموسيقى التي تهمهم في السكون، تشبه أغنية بلا بداية ولا نهاية. من هذه الأغنية انبثقت جميع الأغاني الأخرى. أدركتُ في غرفتي أن للسكون جسدًا. إنه حيّ. صوت قطرة ماء من صنبور المطبخ. صوت شبشب أمي القطيفة. رنين التليفون. فتّح باب الثلاجة. مشية أبي المتثاقلة. تمكنتُ عبر ثقب المفتاح المسدود من استنشاق وسماع ما في الخارج، وشعرتُ بالارتياح لأنني لم أعد مضطرًا لدمج نفسي معه. وخز في فروة رأسي. شعرتُ بنمو شعري.



- هل تواصل معك مرَّة أخرى؟

- مَن؟

- «كوماموتو».

حرَّكتُ رأسي نافيًا:

- لا. لا أعرف ما حدث له، وكي أكون صادقًا، لا أريد أن أعرف إطلاقًا.

- لِمَ لا؟

- لقد كتب قصيدته. الآن أكتب قصيدتي. هل تفهم؟

- وإن كان ما زال على قيد الحياة...

- ... لقد قضيتُ على كل حال عامين في غرفتي. آخر عامين من شبابي قدمتهما هدية. هدية له! ذلك الذي لا أستطيع أن أتخيل أن تكون روحه حية.

- هل لي أن أقرأها؟ أقصد قصيدتك؟

- لم تنتهِ بعد.

- لكنها هنا.

- أين؟

- على ظهر يدك.

ندوب كثيرة. أخفيتها في لمح البصر.



بعض الخضروات، سلطة مكرونة، كُرتان من اللحم.

نثَرَ بعض الفُتَاتَ المتبقي أمام الحمام الذي تجمَّع حولنا مرفرفًا بجناحيه. ضرب الأرض بقوة. طار الحمام بعيدًا مُصدرًا هديلًا، ثم عاد مرَّة أخرى برقاب منفوشة الريش. نسوا أنه أبعدهم للتَّوِّ. تمتم:

- حيوانات مسكينة. إنه بالتأكيد أمر سيئ. أن تعيش دون ذاكرة. لكن ربما ليس سيئًا للغاية كما يظن أي شخص منا. أعني لو نسي الإنسان كل شيء، ألن يغفر كل شيء؟ ألن يغفر لنفسه وللآخرين؟ ألن يتحرر من الندم والشعور بالذنب؟

شعر برعشة في جسده، مسح بكُمِّه بُقعة غير مرئية على بنطاله، ثم أكمل حديثه:

- لا، ليس صحيحًا. هذا سيكون سهلًا للغاية. لكي تغفر، لكي تتحرر حقًّا، عليك أن تتذكر، يومًا بعد يوم.

ثم قال:

- هل تريد مواصلة الحكاية؟

- نعم، أحب الغفران.

هكذا خرجت الجُملة مِنّي. هكذا بالضبط.

واصلتُ حديثي:

- لستُ نموذجًا للشخص الانطوائي. لست شخصًا ممَن يرد ذكرهم في الكتب والمقالات الصحفية التي يتم وضعها من الحين للآخر على عتبة بابي كي أقرأها. أنا لا أقرأ الرسوم الهزلية، ولا أقضي النهار أمام التليفزيون، والليل أمام الكمبيوتر. لا أصمم نماذج طائرات. ألعاب الفيديو تُشعرني بالغثيان. لا ينبغي أن يصرفني شيء عن محاولة حماية نفسي من نفسي. من اسمي، من إرثي. أنا الابن الوحيد. من جسدي الذي لم تتوقف احتياجاته للحفاظ عليَّ. من جوعي، من عطشي. في السنتين اللتين قضيتهما في غرفتي، كان يصارعني جسدي ويغلبني ثلاث مرَّاتٍ في اليوم. كُنتُ أتسلل بعدها إلى الباب، أفتحه قليلًا، ثم أخذ صينية الطعام التي وضعتها لي أمي. عندما لم يكن أحد في المنزل، كُنتُ أتسلل إلى الحمَّام. أغتسل. هذا الاحتياج للاغتسال غريب. أغسل أسناني وأمشِّط شعري الذي أصبح طويلًا. أنظر في

المرآة؛ ما زلتُ موجودًا. كتمت الصرخة القابعة في حلقي. أردتُ أن أحمي نفسي منها أيضًا. من صوتي، من لغتي. اللغة التي أدرك فيها الآن أنني لا أعرف إذا ما كان هناك نموذج للشخص الانطوائي من الأساس. مثلما توجد غُرف متباينة تمامًا، فهناك كذلك صور متباينة تمامًا للانطوائيين الذين يتوارون بطُرق ولأسباب مختلفة تمامًا. بينما قضى أحدهم - كما قرأت عنه - شبابه الذي يمر في عزف اللحن نفسه على جيتار ذي ثلاثة أوتار فقط، قضى آخر - كما قرأتُ عنه أيضًا - شبابه في تجميع الأصداف البحرية. ليلًا وعندما يحل الظلام، يمشي على البحر واضعًا القلنسوة على رأسه، ولا يعود إلى المنزل إلا ببزوغ الفجر.



- أنا محظوظ لأنهم يدعونني وشأني حتى يومنا هذا. فالبعض يتم استدراجهم. يتمّ وعدهم بإعادة تأهيلهم، وباسترداد عافيتهم أيضًا. العمل. النجاح. من خلال هذا الوعد البسيط على شفاههم، يتم إعادتهم خطوة بخطوة إلى المجتمع، تلك الأرضية المشتركة الكبيرة. يتم تعويدهم أن يصبحوا كما يريد المجتمع. أن ينسجموا معه، إلا أنني محظوظ كوني لم أوضع في الحسبان.. لم يُرسَل لي أي أخصائي اجتماعي، ليجلس أمام غرفتي ساعاتٍ محاولًا إقناعي. الكتب والمقالات الصحفية التي تصفحتها، عطر أبي الذي يستخدمه بعد الحلاقة، طرق فاتر على الباب مرّة أخرى، بصمة أمي على إحدى كُرات الأرز. هذه الحياة الصغيرة كافية، يمكن تحمُّلها بالكاد. مُنحت إياها. لذا فأنا محظوظ، محظوظ كوني جزءًا من عائلة تمنحني فرصة

الانطواء. بالتأكيد لأنهم يشعرون بالعار. لا ينبغي أن يعرف أحد بأنني انطوائي. قالوا للجيران إنني أدرس في أمريكا، وعندما كُنتُ أعاود الخروج من المنزل، أخبروهم أنني عُدتُ من أمريكا، لكنني بحاجة إلى بعض الوقت كي أتأقلم على وطني مرَّة أخرى. أنا محظوظ لكوني جزءًا من عائلة تشعر بالعار مني.

وربما هذا الحظ هو أكثر ما يُميز الشخص الانطوائي. الحظ كونه قادرًا، لفترة زمنية غير محددة، على التحرر من الأحداث ومن توابعها. التحرر مما يحدث حاليًا وما سيترتب عليه في المستقبل. الحظ الذي يسمح له بالبقاء في غرفة ليس لها وجود دون أن يكون له هدف أو رغبة في الوصول إليه. كُرة ساكنة وحيدة لا تُحرِّك غيرها. من خلال عزل نفسه، يسقط الانطوائي من شبكة المعارف والعلاقات، ويشعر بالارتياح لأنه لم يعد مضطراً أن يكون له علاقة بها. هذا الارتياح بأنه لم يعد مضطراً للمساهمة في المجتمع. وفي النهاية يُقرُّ أنه لا يُبالي للعالَم على الإطلاق.

39



- ليس من السهل أن يكون أحد أفراد العائلة انطوائيًّا. لا سيما في البداية. الجميع يعرف؛ ها هي عتبة الباب، وراءها غرفته التي يدَّعي فيها الموت. لا يزال على قيد الحياة، أحيانًا - بالنسبة للعائلة كان ذلك نادرًا - يُسمع صعوده ونزوله. تضع له طعامه أمام باب غرفته، وتراه يختفي. تنتظر. بالتأكيد سيضطر للذهاب إلى الحمَّام، إلى المرحاض. تنتظر هباءً. لم أخرج في البداية إلا عندما أكون على يقين أن لا أحد سيُزعج وجودي. كان وجودي يكمن في غيابي. كُنتُ وسادة مقعد لم يجلس عليها أحد، مكانًا حول طاولة ظلَّ فارغًا، برقوقًا مقضومًا على صحن أعدته أمام الباب مرَّة أخرى. كان عدم وجودي انتهاكًا للقانون الذي يلزمني بالوجود، وبناءً عليه فعليَّ أن أفعل شيئًا، أن أحقق شيئًا.

لكن في الوقت نفسه، ليس من الصعب أن يكون أحد أفراد العائلة انطوائيًّا. يتبدد اليأس الذي تشعر به في البداية بسبب غيابه، إلى أن يختفي تمامًا بمرور الوقت. وما سيتبقى هو الشعور باليأس لمحاولتك إخفاءه. «*يا له من عار!*». «*ابننا الوحيد!*». «*بدأ الناس يتحدثون عنّا!*». نظرات ارتياب في محل «فوجيموتو». «*الناس يهمسون، أتبضع لثلاثة أشخاص، بينما في الواقع يُفترض أن أتبضع لاثنين فقط*». «*على الأقل يسحب الستائر لأسفل. لا أتخيل ماذا سيحدث لو رآه أحد. أنت تعرف ماذا حدث آنذاك مع عائلة «مياجيما». في النهاية لم يكن لدى أي شخص كلمة جيدة ليقولها عنهم*».

اتفق أبي وأمي على ضرورة الحفاظ على اسم العائلة وسمعتها بأي ثمن. تجادلا كثيرًا حول المُذنِب المسؤول عن انطوائي، ومَن منهما أكثر ذنبًا. تجادلا بهدوء كي لا يسمعهما الجيران. سمعتهما يقولان: «*لقد دلَّلتهِ*»، «*لم تكن موجودًا من أجله قط*». لكن فيما يتعلق باسم العائلة وسمعتها، كانا متفقين، اتفاقهما كان في مصلحتي؛ لأنه سمح لي بالاستمرار في انطوائي.

حاولا استعادتي مرَّة واحدة فقط. بعدما وصلا إلى ذروة يأسهما، فتحا الباب بعَتَلة. اقتحم أبي الغرفة هائجًا.

- *وماذا لو ضربتك؟!*

رفع يده لبضع ثوانٍ في الهواء. تذكرت يد «كومامونو». تراجعت. هوت يده بسرعة، فصفرت في الهواء. ضربة في الهواء. انهار والدي وهنًا على الأرض. قُلتُ: «لا أستطيع المواصلة بعد الآن». قلتها بالأحرى لنفسي. منذ ذلك الحين، تركاني تمامًا وشأني.

40



- هل سمعتَ ما كُنتُ أقوله؟

- إممم.

صمت. لم يحكم صمته على ما قلته، وعلى الطريقة التي تكلمت بها. كانت مجرد «إممم» ليست إلا. وبهذه ال»إممم»، تحركت الشمس عبر السماء. عندما عاودنا الحديث مرّة أخرى، ظللنا نتكلم عن أمور صغيرة؛ عطلة نهاية الأسبوع، الطقس.

- لو استمر الطقس هكذا، سنخرج غدًا إلى البحر. «فومي» تحب الخروج.

«إممم» مرّة أخرى. ثم غفا بعدها.

لفت انتباهي أنني أسقطتُّ الكثير مما حدث. فلم أحكِ له مثلًا أن

«كوماموتو» كان يلقبني أحيانًا بـ«توأمه»، بتعبير أدق: «توأم روحه». لم أحكِ له أنني افتقدته. لم أحكِ له أن أمي كانت تبكي عليَّ كثيرًا، وأن أبي لم ينسَ قط أن يمرر لي مصروفي من تحت الباب. لم أحكِ له أن هذه الأشياء التي أسقطها هي التي حددت إطار قصتي. كان «كوماموتو» على حق؛ يمكن لأي شخص منَّا أن يكتب قصائد رثاء، الملايين منها، حول موتٍ واحد، الموت نفسه. لكن كل قصيدة منهم ستختلف عن الأخرى، حسب ما أُسقط منها.



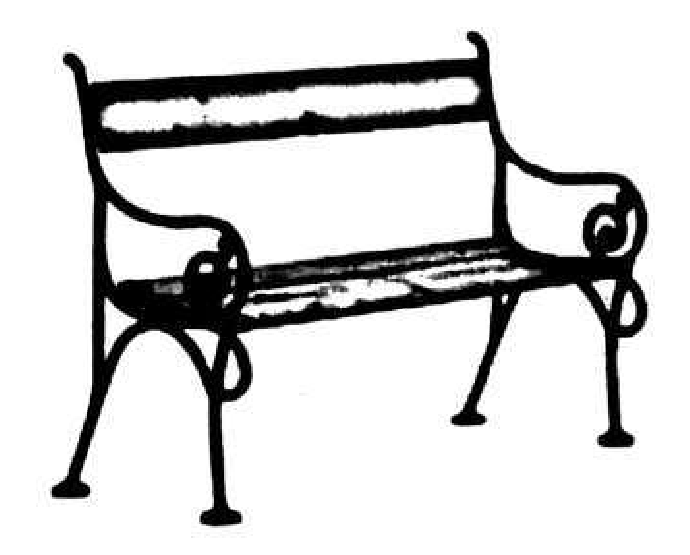
مرَّ يوما السبت والأحد ببطء شديد. كان وداعنا خاليًا من الهموم.

- حسنًا، اعتنِ بنفسك. أراك لاحقًا.

لم يحدث أي إحراج بيننا، انتظرت قدوم صباح الإثنين بفارغ الصبر. هل سيعود؟ أقلقني السؤال، مثلما أقلقني صوت احتكاك القطار بالقضبان. مثلما أقلقتني كلمة «الآن! الآن! الآن!». صوت الإذاعة الداخلية الواضح: «سيتأخر القطار. شكرًا على تفهمكم». شخص يهمس في تليفونه المحمول: «لقد رمى شخص آخر نفسه أمام القطار».

للمرَّة الأولى منذ فترة طويلة، أشعر بالرغبة في إلهاء نفسي. خرج والديَّ، رأيتُ أضواء سيارتهما أثناء انعطافها عند مدخل البيت. بمجرد رحيلهما، تسلَّلت على أطراف أصابعي إلى غرفة المعيشة. شغَّلت

التليفزيون. برنامج طبخ. غيَّرتُ القناة. مباراة بيسبول. تركتها وذهبتُ بخطى أكثر ثباتًا من غرفة المعيشة إلى غرفة النوم، ومن غرفة النوم إلى الحمَّام، ومن الحمَّام إلى غرفة الضيوف. سرير مهجور مُحاط بصناديق من الورق المقوَّى. كتب قديمة. دمية على شكل دُب. لعبة أطفال قديمة. الرائحة المألوفة للأشياء التي كانت آنذاك ذات قيمة. أصبحت غرفة الضيوف مخزنًا للأغراض عديمة القيمة. آخر ضيف نام هنا كان صديقة أمي، العمة «ساشيكو». نادرًا ما يأتي الزوار إلينا، وإذا أتوا، كانوا يتحدثون قليلًا عند مدخل المنزل، ثم يرحلون. بدا البيت كله في انتظار شخص يدخله ويملؤه بالحياة. كان منزلًا حزينًا. لأواسيه، عُدت من غرفة الضيوف إلى الحمَّام، ومن الحمَّام إلى غرفة النوم، ومن غرفة النوم إلى غرفة المعيشة، وتركت - أينما شئت - أثرًا يقول له: «لا تزال بك بعض الحياة». حرَّكت أشياءً لمسافة نصف سنتيمتر. أحدثتُ تجويفًا غائرًا في الشِّلَت والوسائد. بدَّلتُ فوطة بأخرى. أخَّرتُ الساعات دقيقة. من جدران المدخل، تبتسم صور من الماضي البعيد. وقفتُ أمام إحداها. كنا فيها ثلاثتنا، وراءنا خلفية غير حقيقية؛ جسر «البوابة الذهبية». فوقه قمر عملاق أكبر من حجمه الطبيعي. لم نذهب إلى «سان فرانسيسكو» قط. أدرتُ الصورة باتجاه الجدار.



- حسناً، هل ذهبتُما إلى البحر؟

- لا.

حاول أن يضحك، لكنه فشل.

- رأت «فومي» أنني أبدو مُنهكًا، وأن عليَّ الجلوس والاسترخاء فقط. قالت:

- *وإلا ستموت من كثرة العمل.*

هذه هي «فومي»، إنها تعرفني جيِّدًا. تعرف أنني شخص يصعب عليه ألا يفعل شيئًا. على أي حال، لقد كُنتُ ذات يوم هكذا. لكن ذلك كان منذ فترة بعيدة.

- منذ شهرين؟

- نعم، منذ شهرين تقريبًا، منذ أن فُصلت من العمل، وصار الوقت نسبيًا. في الواقع، أنا لا أتذكر حتى كيف قضيتُ هذه الفترة. يبدو لي أنني لم أفعل شيئًا إلا العمل، العمل وحسب، وعلى عكس الكثيرين، فعلت ذلك بكل سرور.

- لكن لماذا أنت هنا إذًا؟

- لم أستطع مُجاراة الزمن.

تكلَّم دون النظر إليَّ، أدار وجهه للجنب قليلًا.

- بدأت أصير لافتًا للانتباه في الشركة. عشرة موظفين شباب. من بينهم أنا، شعر أبيض. عشرون يدًا. من بينهم يداي، بطيئة جدًّا. لفتُّ الانتباه كشخصٍ يتهاوى. حتى شرب الكحول بعد العمل، قللته كثيرًا. بينما كان الآخرون يشربون حتى يترنَّحوا، كُنتُ أشرب نصف ما يشربونه، وأترنَّح أيضًا. ليس ممتعًا أن تكون مُستلقيًا في السرير، ولم تعد تعرف كيف ستواجه صعوبات الغد. تبدأ تطرح على نفسك كل الأسئلة المُمكنة. تنظر في المرآة، وتحول نظرك بعيدًا بسرعة. تتجنَّب ذكر لفظ «عجوز». لكنها تنزلق من فمك في الموقف الذي لا تناسبه. حتى أنت ستكون غير مناسب في الموقف، بطريقة أو بأخرى لن تصبح مناسبًا بداخله.



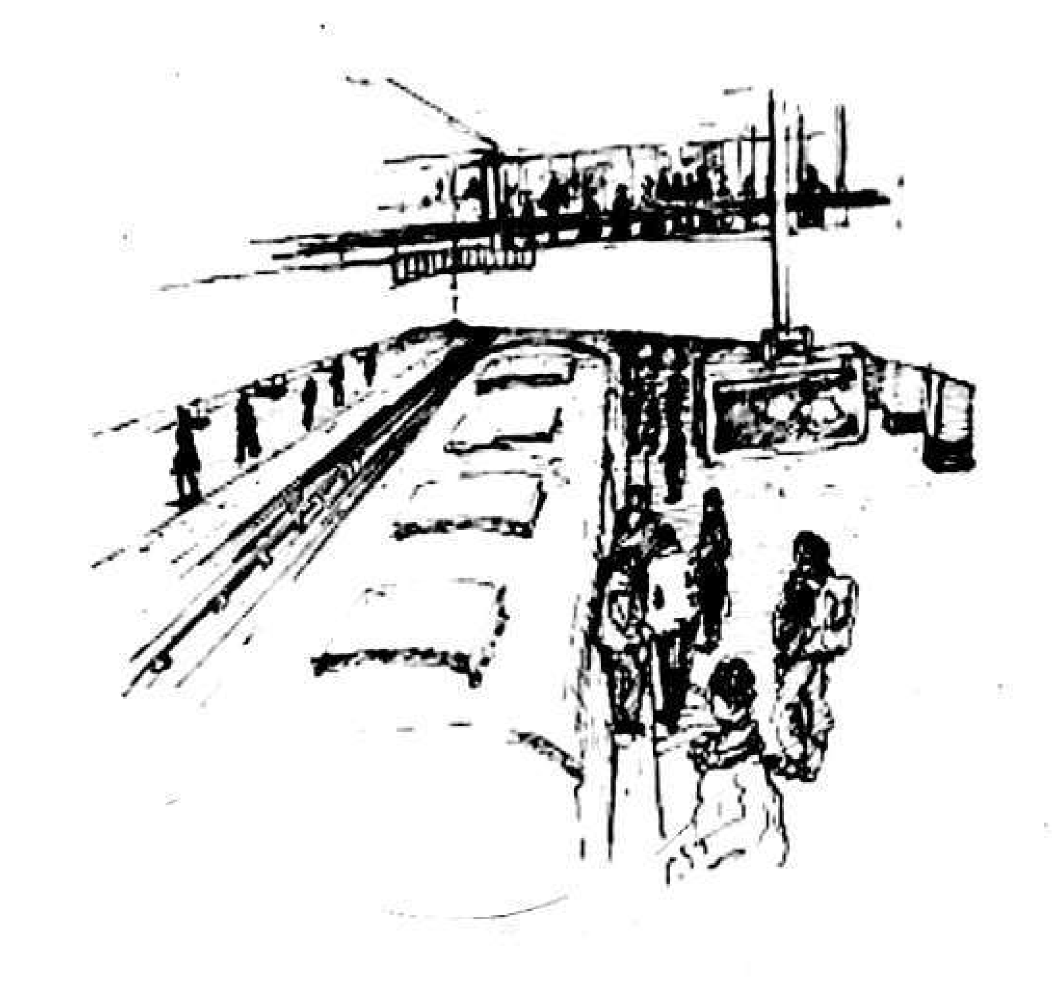
- ذات يوم، تعثَّرت. كانت حادثة مُحرجة. كُنتُ أحمل كومة ورق إلى مكتب أحد الزملاء. لقطة بالتصوير البطيء. كان هناك سلك. رأيته. وبالفعل تجاوزته بإحدى قدميَّ، لكنَّ القدم الأخرى علقت به. تبعثر الورق. حولي أرقام سوداء. رقم أحمر، ثمانية وخمسون. سخر مِنّي. عشر كرافتات شهود عليَّ. عشرون عيناً، نظرة واحدة. همس أحدهم:

- *لقد انتهى أمره، انتهى أمره بكل تأكيد.*

إن حادثتي المؤسفة، وهي الحادثة الكبيرة الوحيدة التي وقعت لي طوال سنوات عملي الخمس والثلاثين، جرَّت وراءها سلسلة من الأخطاء وفقدان الثقة بالنفس. لقد تعثرت بالمعنى الحقيقي للكلمة،

وما انزلق من يديَّ كان أكثر بكثير من مجرد كومة ورق. راقبتُ نفسي. كان بي خطبٌ ما. تلمَّست ذراعيَّ وساقيَّ. صعدتُ الممرات ونزلتُها على سبيل التجربة. جرَّبتُ مشية، ثم جربتُ غيرها. اشتريتُ أحذية ذات نِعال ضد الانزلاق كي أتأكد فقط من أن ما فقدته لم تكن القدرة على السير في خط مستقيم، بل السير برشاقة وحماس. الأمر الذي كُنتُ أعتبره طبيعيًّا. لم أعد قادرًا على فعل ما كُنتُ أفعله في الماضي. كُنتُ أترنَّح محاولًا الوصول لما كُنتُ أصل إليه من قبل.

44

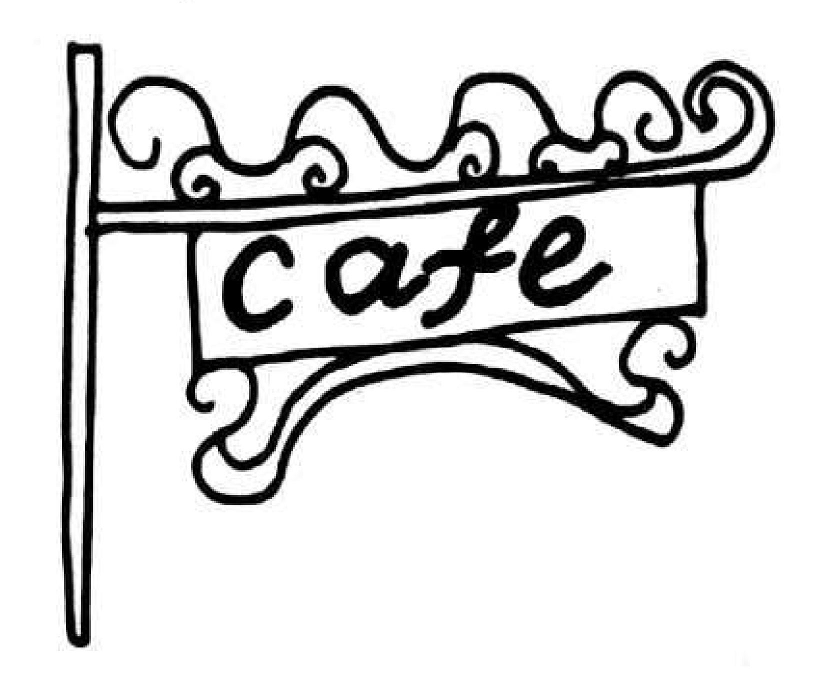


- هذا التعب...

حلَّ بي كأول تساقط للثلوج في فصل الشتاء. كان كل شيء أصفر وأحمر وأزرق، والآن صار أبيض. كل شيء كان موجوداً، منزل وشجرة وكلب، والآن صار كومة ثلج بلا هيئة. لم أكن أعرف ما تحتها. ملأني التعب. ثقل وكأن حجراً معلقًا في جسدي. تخيَّلتُ أنني أجلس في المترو وأنا في طريقي إلى العمل، وأفكر في كيفية الوقوف. أتوقَّف عن الجلوس. أقف مستقيماً، ممسكًا باليد المتدلية في المترو كي لا يهزمني التعب. كانت معركة ضد الجاذبية. أغمضتُ جفنيَّ. الظُّلمة التي حلَّت بعدها، تملَّكت مني أكثر فأكثر.

هذا التعب الغادر.

لم يُصِب أطرافي وحسب، لكن ربما أصاب عقلي بعدها مباشرةً. فهمتُ المهام التي وُكلت لي، ولم أفهمها في الوقت نفسه. وازنت نفسي على حبل رفيع معلقًا في مؤخرة عنقي ثقلًا. مجرد خطأ كتابي أو بقعة على قميصي كانا كافيين لأسقط برأسي إلى الهاوية، لكنني لم أسقط مرَّة أخرى. هذه المرة غفوتُ. بعد خمسة وثلاثين عامًا، يجب أن أؤكد ذلك، بعد خمسة وثلاثين عامًا، غفوتُ على مكتبي بعد ظهر أحد أيام الإثنين. لم تكن غفوة لحظية. لا. ليست مجرد خوض في المياه الضحلة. كانت أقرب إلى الغوص في البحيرات الأكثر عُمقًا. كُنتُ حُطام سفينة، افترسته الطحالب، وكانت الأسماك تسبح عبر معدتي في أسراب مُتلألئة.



- عندما هزَّني أحدهم ليوقظني، عرفتُ أنني مفصول مَن العمل. في فمي مذاق حلم بلا نكهة، لم أستطع تذكُّره، وكُنتُ أتمنى لو لم يوقظني أحد منه.

بعد ذلك بقليل، فُصلت من العمل.

قيل لي:

- *لم تعد كفؤًا بما فيه الكفاية.*

حزمت أشيائي وألقيت بها في أول صندوق قمامة. سقط عنِّي عبء. نعم، أشعر بالخجل من الاعتراف بأنني في لحظة جميلة كهذه لم أشعر بأي شيء سوى الراحة. لم يعودوا بحاجة لي. لست مضطرًا لإثبات أي شيء. الشعور بأنني أخيرًا فشلتُ جعلني ثملًا. كُنتُ أشبه

بتوهجُ شمعة شديد، لا يتغذى لهيبها إلا على بقايا الشمع المتلاشية. هي تعلم أنها ستحترق قريبًا بالكامل. ولذلك، تشع - للمرَّة الأخيرة - بتوهج أكثر من أي وقت مضى.

سألتُ نفسي: «إلى أين أذهب؟» ليس إلى المنزل. جلستُ في بار ليس بعيدًا عن هنا، كُنتُ لا أزال أشعر بارتياح. ثم خرجتُ منه مُترنّحًا بعد تناول خمس زجاجات بيرة. هواء ربيعي معتدل. سُحُب تقودها الرياح. عند إحدى النواصي التي مررتُ بها، ألقى أحد السُّكارى خطابًا حماسيًّا عن حال الأمة. سعل ببلغم لزج كالعجين، ثم بصق. عندما التقت نظراتنا، صاح:

- *يا أخي، أين كنت؟*

التفتُّ بعيدًا شاعرًا بالاشمئزاز. تبعني. شعرتُ بنظراته في ظهري. اقترب مِنّي. شعرتُ بيده. أسقطته أرضًا بكل قوتي، ركلته كمن فقد كل حواسه. ما أغضبني أنه لم يدافع عن نفسه. لم يرد أيًّا من اللعنات التي وجهتها له. حشرجة طفل يتنفس:

- *أين كنت؟*

انحنيتُ بجسدي نحوه. كان وجهه أزرق.

- *أخي العزيز...*

طاردتني حشرجة صوته.

لم يعاودني التعب إلا وأنا في المنزل. جذور متشعبة كثيرة العُقد عند مدخل البيت. حولها أسفلت مُتصدّع. تمكنت بالكاد من العبور خلال بوابة الحديقة. أُصُص زهور «فومي». قفاز. أصابعه فضفاضة. أدخلتُ المفتاح في القفل بصعوبة. صدى صوت حنون:

- *أين كنت؟*

تمتمتُ:

- *أجمل ما في العمل هو العودة إلى المنزل.*

- *أنت أحمق.*

رائحة عيش غراب وبصل.



- لم أخُن «فومي» مع أي امرأة أخرى قط. أستطيع أن أقول ذلك بصدق. لم أتعرض لأي إغراء بحجم الوعد الذي أعطيتها إياه.

اعتاد «هاشيموتو»، وهو صديق لي من أيام الجامعة، على أن يسخر منّي، كان يقول إنني جبان. كان هو الآخر متزوجًا، لكنه لم يفوِّت أي فرصة سنحت له، وكانت الفرص أمامه كثيرة؛ لأنه كان رجلًا حسن المظهر ويكسب جيِّدًا. أدهشتني قدرته على التنقل من جسد امرأة لآخر. كان يقول ذلك:

- *أنا أتنقل.*

- *كيف يمكنك فعل ذلك، أن تُخفي الأمر؟*

- إنه ليس فنًّا. كل شيء يبدأ بأول كذبة. تزرعها داخل النظام. تتشعب جذورها بداخله. في مرحلة نموها الأولى، تكفي دفعة لاجتثاثها منه. تتبعها الكذبة الثانية. تنمو الجذور أعمق فأعمق. الكذبة الثالثة، الرابعة، الخامسة. الآن تحتاج إلى مجرفة. الكذبة السادسة، السابعة. الآن تحتاج إلى حفَّار آلي. لقد تشعَّب النظام الجذري بالفعل. شبكة تحت الأرض. لا تراها. عندما ترفعها، لن يتبقى منها سوى ثقب. الكذبة الثامنة، التاسعة، العاشرة. في مرحلة ما، يتم اختراق النظام بالكامل. إذا حاولت خلع الجذور من الأرض، سيتداعى السطح فورًا.

لا يزال «هاشيموتو» يتجوَّل حتى اليوم. صادفته مؤخرًا في أحد المتاجر. سألته:

- كيف حالك؟

- لا ثقوب في السطح.

لم تتأثر ضحكته. كان محافظًا على نضارة شبابه. سألته:

- وزوجتك؟

- ها هي تقف هناك.

أشار إلى مجموعة من النساء الواقفات عند قسم التصفيات.

- هي مَن ترتدي وشاحًا.

شعرت بالذعر. فقد رأيتُ وجهًا مُدمَّرًا. كان عمرها مائة، لا، مئات الأعوام. سألته:

- ماذا حدث؟

ضحك، مبينًا أسنانه البيضاء:

- إنها الحياة! الحياة يا عزيزي!

قالها بصوتٍ عالٍ نسبيًّا. راقبتهما وهما يختفيان في المصعد، هو يقف مستقيمًا، بينما هي تقف منحنية، زوجان غير متكافئين. كل منهما يعطي ظهره للآخر، كل منهما في عالمه الخاص.



- ما أريد قوله هو أن للكذبة ثمنًا. بمجرد أن تكذب، تجد نفسك في عالمٍ آخر. تعيشان تحت سقف واحد، تقيمان في الغرف نفسها، وتنامان على السرير نفسه، تتغطيان بالبطانية نفسها. لكن الكذبة تقضم ما بينكما كالقارض. إنها خندق لا يمكن تجاوزه. تتسبب في انهيار البيت إلى جزأين. ومَن يدري إذا ما كان الأمر نفسه سيحدث لو كان الزوجان صادقين مع بعضهما بعضًا.

أنا الذي لم أخن «فومي» قط، أشعر كما لو أن لديَّ عشيقة. اسمها «الوهم». ليست فاتنة، لكنها جميلة بما فيه الكفاية. سيقان طويلة. شفاه حمراء. شعر مجعد. أنا متيم بها. صحيح أنني لا أريد أن أبدأ معها حياة جديدة، لكنني أبني معها قصورًا في الهواء. آخذها إلى أغلى المطاعم في المدينة. أطعمها. أستأجر لها شقة. أحافظ عليها مهما كلفني الأمر. كانت ترضيني وتُشبع رجولتي. معها أعود شابًّا قويًّا. تهمس لي: «العالم بين قدميك». إنها تؤمن بي وبإمكانياتي، وأنا أؤمن

بإيمانها بي، وأدع نفسي أشعر بالإطراء التام بسبب إيمانها بي. أنا مُغامر كسول، أقوم بالمغامرة في ذهني فقط.

في المنزل، أُحلِّق داخل فقاعة رقيقة للغاية لدرجة أن لمسة ستجعلها تنفجر. لذلك حاولت ألا يلمسني أحد. أجلس أمام التليفزيون وأشاهد الأخبار. إذا سألتني «فومي» كيف كان العمل أو لِمَ لا أعمل في الآونة الأخيرة ساعات إضافية أو إذا كُنتُ قد تحدثت بالفعل إلى مديري عن هذا الأمر أو ذاك، كُنتُ أرد عليها:

- ششششش. *ليس الآن!*

تُكرر السؤال. هذه المرَّة أكثر وهنًا. أقول لها:

- *لا حقًا من فضلك.*

تهزُّ كتفيها. أتجرأ وآخذ نفسًا عميقًا. الفقاعة، التي أُحلِّق بداخلها، تهتز بسبب نَفَسي بشكل يكاد يكون ملحوظًا.

إنه قرار.

بهذه الجملة، أخرج وجبة «البينتو». مرَّة أخرى؛ أرز، وسمك سلمون، وخضروات مُعلَّبة.

- قررتُ أن أتصرَّف كما لو... لأن ذلك كان وعدي؛ أن تصبح

الحياة اليومية، حياتنا اليومية، ملاذنا. يجب الحفاظ عليها. حتى النهاية.

أخيرًا نظر إليَّ. غمز لي وقال:

- أعدَّت «فومي» وجبة «البينتو»، طعمها رائع بشدة، لدرجة أنني لم أكن أريد أن أفتقده.



سألته:

- هل لديك أطفال؟

طأطأ رأسه للأسفل قليلًا قائلًا:

- لا. لا. لماذا؟

- تصوَّرت الآن أنك ستكون أبًا رائعًا.

- أنا؟

- نعم، أنت.

- وما الذي يجعلك تتصوَّر ذلك؟

- لأن حتى أنت تبدو في بعض الأحيان كالطفل، عندما تأكل مثلًا، تصبح كالطفل الذي لا يعرف سوى ما يفعله في هذه اللحظة.

- وهذا يجعل مني أبًا جيدًا؟

- حسنًا، دعنا نقول إنه سيجعلك أبًا في هذه اللحظة.

حبس الكلمة قبل أن ينطق بها:

- الفتاة الموجودة هناك. هل تراها؟ إنها تحرك إصبعها في البركة دون توقُّف. ترسم شيئًا في الماء. تُشاهد كيف تختفي رسمتها. تبدأ من جديد. لا ترسم سوى صور تختفي. لعبة بلا هدف، لكنها لعبة مُبهجة. إنها تضحك باستمرار. كثيرًا ما أتساءل لماذا لا يستطيع الإنسان فِعل ذلك؛ أن يكون سعيدًا بلا هدف؟ لماذا يجلس عندما يكبر في غُرف ضيقة ذات سقف منخفض؟ وبغض النظر عن مكان وجوده، أقصى ما يفعله هو التنقُّل من غرفة إلى أخرى، في حين أنه كان يجلس - عندما كان طفلًا - في غرفة بلا جدران؛ لأن هذا ما أتذكره. عندما كُنتُ طفلًا، كُنتُ أعيش اللحظة بلحظتها. لم يستطع الماضي ولا المستقبل أن يضراني مُطلقًا، ويا ليت ذلك استمرَّ حتى اليوم. أن يتمكَّن الإنسان، على سبيل المثال، من العمل ليس بدافع تحقيق نتيجة، ولكن بدافع الشغف، دون مشقَّة.

قضم شفتيه مرَّة أخرى فصارت شاحبة.

أراد أن يتنهَّد، لكنني سبقته.

تنهَّد معي، وقال:

- يا ليته استمرَّ فعلًا.

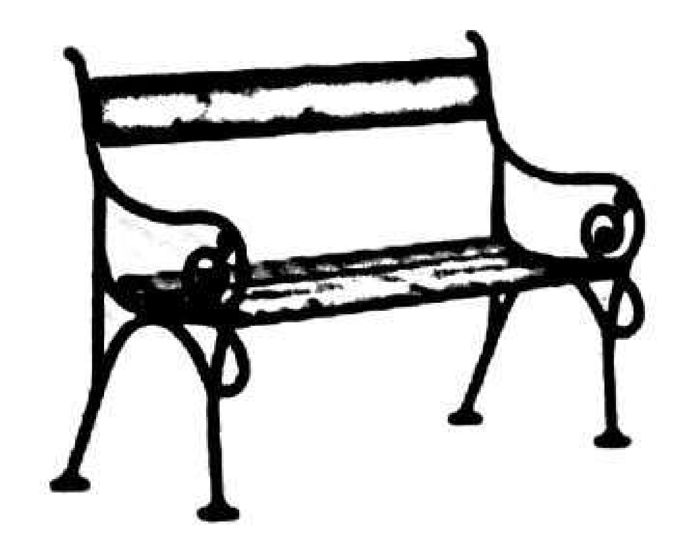


- بالنسبة لي، فاتني القطار على أي حال، وأنا سعيد لأنه غادر من دوني. بقدر ما أتذكر، لم تكن لديَّ الرغبة في تحقيق أي هدف. أقصد أي رغبة نابعة مني. الحصول على درجات جيِّدة لم يكن من أجلي، لكن من أجل والديَّ اللذين ظنَّا أنني سأحيا حياة مستقرة. كان طموحهما، ليس طموحي. كانا يتصوران أن حياتي ستكون متطلعة للمستقبل.

ما زلتُ محتفظًا بزي المدرسة. علَّقته في أكثر أركان حجرتي ظُلمة، أشبه بجسد بلا روح. يبدو كأحد الكائنات التي تقابلها في الحلم. لا تعرفها، لكنك تشعر بقرابة غريبة بينكما. عند النظر إليها عن قُرب، تجد أنها ظلَّك.

لو ارتديتُ هذا الزي اليوم، سأملؤه بالكاد. سيكون مظهري فيه مثيرًا للسخرية، مثلما شعرت عندما كُنتُ أرتديه في الماضي. إنسان مُتنكِّر في زي تلميذ، يتظاهر أنه يتعلَّم شيئًا، لكنه في الواقع ينسى كل شيء مهم قد تعلَّمه. هذا سبب آخر جعلني انطوائيًّا. لأنني أريد أن أتعلم مرَّة أخرى كيف أنظر للأمور. أنظر من سريري عبر الشق الذي أحدثته سابقًا في الجدار، عندما ضربته من شِدة غضبي. أنظر خلاله طويلًا إلى أن أختفي فيه تمامًا. الزمن به تجاعيد، كان الشق إحداها. أنظر عبره كي أتذكر اللحظات العديدة التي نظرت فيها بعيدًا.

50



- كان عمري أربعة عشر عامًا. طالب متوسط المستوى. كانت درجاتي جيِّدة، لكنها لم تكن جيِّدة جدًّا. وكان بقائي على قيد الحياة يتوقَّف - كما تعلّمت سابقًا - على الحفاظ على هذا المستوى المتوسط. أهم ما في الأمر أن أكون طبيعيًّا. ألا أكون، تحت أي ظرف من الظروف، أي شيء آخر غير طبيعي. لأن مَن يُلفِت الانتباه، يناله سخط أولئك الذين يشعرون بالملل من كونهم طبيعيين، وليس لديهم ما يفعلونه أفضل من تعذيب ذلك الشخص المُختلف. ومن منَّا يريد ذلك؟ من يُسلِّم نفسه طواعيةً للتعذيب؟ لذا يتقبَّل الإنسان الأمر، ويكون مُمتنًّا كونه واحدًا من أولئك الذين لا يبرزون.

لكن «تاكيشي» فعل ذلك. لقد برز. «كوباياشي تاكيشي».

لقد نشأ في أمريكا، وعاد للتَّوِّ. عندما يقول «نيويورك» أو «شيكاغو» أو «سان فرانسيسكو»، يقولهم كما لو أنهم يقعون هنا

وراءنا، عند الناصية. كانت لغته الإنجليزية نهراً لم أكتفِ من الشرب منه. يقول «مرحباً»، و«شكرًا»، و«وداعًا» باللغة الإنجليزية. كانت تخرج من فمه كالرياح الرقيقة. وجدها الكثيرون رقيقة للغاية، وبدؤوا في ترصُّده. في اليوم التالي، نقصت أسنانه واحدة. قال بلُثْغَة:

- لقد وقعت.

أُستبدلت سنَّته، لكن اللُّثْغَة استمرت. والأسوأ من ذلك أنه بدأ يرتكب أخطاءً. عندما يطلب منه مدرس اللغة الإنجليزية قراءة شيء ما، كان يلفظه بطريقة خاطئة. وعندما يطلب منه القراءة بصوتٍ عالٍ، كان يخطئ في القراءة. فقد شيئًا فشيئًا القدرة على التحدُّث بطلاقة باللغة التي نشأ بها، اللغة التي كانت موطنه في يوم من الأيام. بل ذهب إلى أبعد من ذلك، وبدأ في تقليد لهجتنا. قال «سان فرانسيشكو»، فصارت فجأة بعيدة، بعيدة للغاية. مكان لا يمكن الوصول إليه. كان سماعه صدفة وهو يجبر نفسه على فعل ذلك أمرًا قاسيًا. قبل كل كلمة نطق بها، توقَّف وشعر بالأسى على خروجها من فمه.

المفزع في الأمر أن ما حدث له كان من الممكن أن يحدث لي، لكن ذلك لم يُصبني. ومع ذلك كُنتُ المُراقِب، دومًا ما تكون بحاجة إلى شخص مثلي ينظر إليك، ثم يحيد نظره عنك. حافظت على

مستواي المتوسط من خلال الادعاء بأنني لم أرَ شيئًا. والمفارقة؛ كُنتُ خبيرًا في ذلك. اكتسبت هذه الخبرة في سن الرابعة عشرة، خبرة تجاهُل معاناة شخص آخر. كان تعاطفي معه يقتصر على كوني الشاهد الصامت على ما يحدث له.

- إممم.

كرَّر الـ«إممم» مرَّة أخرى.

دندن أغنية. سحب نَفَسًا من سيجارته. واصل الدندنة. سقط رماد على صدره، طيَّرته رياح خَفيفة بعيدًا. رنين جرس دراجة. أردتُ البكاء. تساقطت من الشجيرات زهورًا لونها أصفر باهت بغزارة.

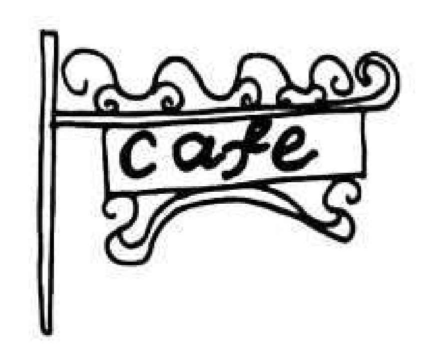
- لم يكن «تاكيشي» الوحيد، أليس كذلك؟

- لا. كانت هناك «يوكيكو» أيضًا.

- إممم.

- «يوكيكو مياجيما».

تضخَّمت الغُصة في حلقي. في يوم الإثنين هذا، لم أنطق سوى باسمها.



بدت وكأنها ستمطر. تثاءب.

تابعت حركة رأسه لأعلى باتجاه السماء المُعتمة الباهتة.

- غدًا. ما هو يوم غد؟ صحيح. الثلاثاء. لقد بدأ الأسبوع للتّوّ. عندما تمطر...

فتّش في جيبه، ثم أخرج كارتًا، كَتَبَ عليه بخط غير واضح، بينما كانت تبدو عليه علامات التركيز: «مايلز تو جو» **MILES TO GO**. كتبها بأحرف كبيرة. إنه مقهى موسيقى جاز. أَكْمَل حديثه:

- عندما تمطر، أكون هناك.

- ولكن...

- لكن ماذا؟

شعرتُ بالدُّوار. فكرة أن أضطر إلى المرور بطاولات وكراسي عبر

مكان مغلق ذي زجاج يَطْرقه المطر. أن أجلس وتلتقي نظرتي مع نظرة الجرسون، وأن أشرب من كوب - يعلم الله وحده - مَن شرب منه قبلي. بينما كُنتُ لا أزال أعوِّد نفسي على الحديقة وعلى صداقتنا، تجاوزت هذه الفكرة إمكانية الذهاب إلى المقهى.

- كل ما في الأمر...

تلعثمت.

- ... خارج المقهى تُوجد مساحة أكبر بين الناس.

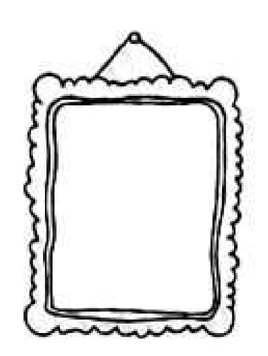
- أفهم قصدك.

نهض.

- حسنًا، أراك لاحقًا حينما تشرق الشمس.

كانت الساعة السادسة. قرأتُ على ظهر الكارت اسمه وعنوانه. اسمه «أوهارا تيتسو». كارت عمل. قُلتُ لنفسي: «أنا جبان». ها هو شيء آخر وضعته في غرفتي، في الدرج، تحت حجر الكهرمان... لم أكمل التفكير في الأمر.

52



«هيًّا سريعًا عبر الردهة». صورة رحلة «سان فرانسيسكو» - التي لم نقم بها أبدًا - مُعلَّقة بعناية على الحائط وممسوح عنها الغبار، كما لو أنني لم أُدِرْها من قبل في الاتجاه الآخر. مَن الذي يبتسم هنا؟ يد أبي على كتفي. نداء أمي «اضحكوا» ينطلق من إطار الصورة. في الصورة، كان وجهي مليئًا بالحبوب، طاقيتي مائلة على أحد الجانبين، أُشير بالسبابة والوسطى بعلامة النصر. لحظة توقَّف فيها الزمن. حبة رمل في الساعة الرملية، سوف تنزلق حالًا عبر الفتحة الضيقة. ستتبعها بضع حبات رملية لاحقًا. بعدها أبعدت يد أبي من على كتفي. تلاشى نداء أمي «اضحكوا».

- ما مشكلة الصبي؟ دعه وشأنه. إنها مرحلة في عُمره.

الحقيقة هي أنهم فضلوا عدم معرفة الأمر. الحقيقة هي أنني فضَّلتُ عدم إخبارهم بالأمر. كان بيننا ميثاق؛ من الأفضل ألا نعرف شيئًا عن بعضنا بعضًا. وهذا الميثاق هو ما يجمع عائلات عبر أجيال مختلفة.

كنا نرتدي أقنعة، لم نعد قادرين على تمييز وجوهنا المختبئة تحتها؛ لأنها كانت مُلتصقة بنا. كان نزعها يؤلمنا. ألم شديد لدرجة جعلت ألم عدم قدرتنا على رؤية أوجه بعضنا أهون من ألم إظهار وجهنا الحقيقي. الشخص الذي كُنتُ عليه في الصورة كان يعرف ذلك بالفعل. كان يعرف أنه لا يوجد مكان للاختباء، لا مفر، أفضل من العائلة. إنه المُربع الخالي ذو الإطار الأصفر، الذي يتبقى بعد إزالة صورة من على الجدار. رميتُ الصورة بصمتٍ في سلة المهملات الموجودة أمام الباب. تسلَّلت مرَّةً أخرى عبر الردهة إلى غرفتي. بمجرد أن انغلق الباب خلفي، تساءلت إذا ما كانت شخصيتي الانطوائية، لامبالاتي التامة تجاه العالم هي الأخرى، أمرًا مصطنعًا. إجابتي كانت: «أنا حقًّا مُتعب».

53



مرَّ يومان. صوت قطراتِ المطر. عبر الفاصل بين الستائر، رأيتُ السماء غائمة، لا وجود لأي شق بين السُحب في الأفق. جريتُ ذهابًا وإيابًا كحيوان في قفص يحلم بسهل واسع. تلمَّستُ قضبان القفص مرارًا وتكرارًا، كان أشبه بتلامُس بين حديد بارد وفرو حيوان مُشتاق للحرية. في اليوم الثالث، تحايلتُ على نفسي وهربتُ. كان القفص مجرد فكرة.

تساقطت مياه الأمطار على أسطح البيوت البارزة. جريتُ مُمسكًا بالمظلة بميل إلى الأمام. حذائي مبلل. مقهى «مايلز تو جو» **MILES TO GO**. قرَّرتُ الذهاب إلى هناك، المرور أمامه على الأقل. المرور أمام اسم المقهى المكتوب بحروف مضيئة وامضة، وربما الظفر بنظرة عابرة. ربما. بسبب هذه الـ«ربما» في رأسي، همتُ على وجهي كحيوان

هارب، ربما أسد أو نمر، يجول عبر الشوارع التي ضَربتها الرياح والأمطار بقوة.

يجب أن يكون «الكرافتة» هناك، في المقدمة. نفذت الـ«ربما» إلى صدري، ومنه انطلقت إلى جميع أجزاء جسدي. دفعتني إلى الأمام، حتى وصلتُ إلى الباب ومررتُ به، ثم مررتُ بالناصية، وبعدها بالتجمُّع السكني. كررتُ ذلك مرَّة أخرى، مررتُ به، ثم مررتُ بالناصية، وبعدها بالتجمُّع السكني. لا أستطيع أن أقول كم مرَّة فعلت ذلك. في ذاكرتي مشيتُ أميالًا. عندما لمستُ مقبض الباب أخيرًا، حديد بارد مُلامس ليد مشتاقة للحُرية، كُنتُ مُنهكًا كَمَن قام برحلة طويلة.

سحابة دخان في المقهى. صوت أكواب خافت. قال أحدهم بصوت مكتوم:

- لا شيء. لا شيء.

شخص يتحدث في التليفون. صوت ذوبان مكعب ثلج. كان الضوء خافتًا.

- «هيرو»..

كان صوته خيطًا لفَّ حولي.

- تعالَ، اجلس. ماذا تريد أن تشرب؟

- «كوكاكولا».

أشار للجرسون بإصبعه.

- من الجميل أن أراك هنا.

غرقتُ في مقعد كرسي جلد ناعم.



كان شكله مُختلفًا عما كان عنه في الحديقة. كان أطول بطريقة أو بأخرى. بدا رجلًا أطول من دون سماء فوقه. بينما أنا، الذي أصير أقصر فأقصر، لم أكن أعرف إلى أين أوجِّه نظري. بعدما رأيتُ أمامي الزجاج الذي يطرقه المطر، شعرتُ بأنني وقعتُ في فخ. ما علاقتي به من الأساس؟ كيف وصلتُ إلى مرحلة أن أسمع آلة البوق الموسيقية مع شخص غريب وسط مجموعة غرباء ملفوفًا حول رقبتي حبل المشنقة؟

- إنها ببساطة رائعة!

كان يتمايل مع إيقاع الموسيقى.

- تجعلك تفقد أي إحساس بالمكان والزمان. ماذا بك؟ ألست على

ما يُرام؟ لونك شاحب. ماذا أستطيع فعله من أجلك؟ هل تحتاج إلى شيءٍ؟

لوَّحتُ بيدي نافيًا.

- لكنك بالطبع تغلَّبت على مخاوفك! لا تقلق، أنت الآن المُتحكِّم بها. المُطمئِن في الأمر أنه لن يحدث شيء. سوف ترى. هذا ليس مكانًا يحدث فيه شيء، وكل مَن يأتي إلى هنا، يأتي لهذا السبب. يدخل مكانًا موسيقيًا صغيرًا بحجم كبسولة خارج إطار الزمان والمكان. برأيك، لماذا اخترت هذا المقهى؟ فقط لأنني كُنتُ على يقين أنه سيكون مثل غرفتك. جيد، الآن تجري بعض الدماء في وجنتيك من جديد.

بهذه الكلمات، صار هو أصغر، وصرت أنا أكبر، إلى أن عاد كل منَّا إلى حجمه الطبيعي. لم يُعِدْني إلى حيرتي مرَّة أخرى سوى إدرا كي مدى الشجاعة الكامنة بداخلي. الشجاعة التي جعلتني آتي إلى هنا، الشجاعة التي جعلتني أثق به.



صوت امرأة مبحوح..

«أن تريد حبًّا لا يمكن أن يكون صادقًا»..

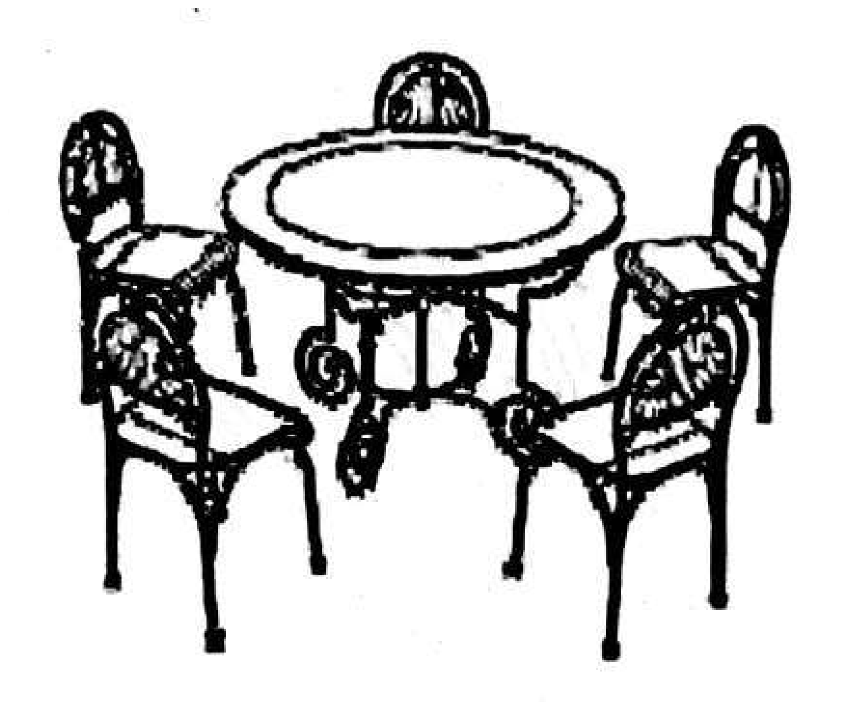
- أغنية «فومي» المُفضلة.

ضَحك.

- الأغنية التي تُشغّلها عندما تشعر برغبة في البكاء. غريب، أليس كذلك؟ أحيانًا تشعر برغبة في افتراش الأرض وترطيبها تمامًا بدموعها. كانت تُسمّي ذلك نوعًا من التطهير. قالت إنه يُطهّر عينيها، فتستطيع بعدها الرؤية بشكلٍ أوضح. لم تكن تبكي حزنًا، ولكن لترى أمور الحياة بصورة أوضح.

- *العيون هي النوافذ التي تنظر منها النفس.*

- خرجت هذه الجملة من فمها، وكأنها حكمة جديدة أو حكمة أُعيد اكتشافها للتَّوِّ، سألتني إذا ما كُنتُ أريد فهم ما قالته؟ إذا ما كُنتُ أريد تحمُّل ما تفعله؟ تعرَّفنا إلى بعض عن طريق خاطبة. عرضت عليَّ صورة لها. عمرها ثلاثة وعشرون عامًا، تعمل على آلة كاتبة، تحب القراءة والغناء والرسم. والدها موظف بنك، والدتها ربة منزل، ليس لديها أشقاء. هكذا وُصفت لي. وجه دمث في الصور، يدها موضوعة فوق الأخرى عند حِجرها بشكلٍ مهذب. قَصَّة شعرها فقط! لم تكن القَصَّة الأفضل لها. وافقت على مقابلتها دون أن يكون لديَّ تصوُّر عنها. أعجبتني ولم تعجبني. كان السبب الأساسي إلحاح الأسرة الذي رضخت له. كُنتُ في الخامسة والعشرين من عمري، ولديّ وظيفة بأجر جيد. ما ينقصني كان زوجة وطفل ومنزل مُريح. لو قيَّمنا الأمر، متخذين والديَّ مثالًا، فإنه مرغوب وغير مرغوب فيه. كان الأمر ببساطة متوقعًا منّي، وأنا أيضًا توقعته، لأنك كإنسان لا تكتمل إلا عندما يكون بجانبك شخص آخر.



- تقابلنا على العشاء في أحد الفنادق. كانا والديَّ متوترين أكثر منّي. «أوكادا» الخاطبة، شفتها مرفوعة لأعلى، تضحك ضحكة مصطنعة. تشبه دمية مصنوعة من الشمع، قد تكون أحيانًا رقيقة جدًّا، وفي أحيان أخرى شديدة جدًّا. كُنتُ أراها ودودة وغير ودودة في الوقت ذاته. كانت واحدة من أولئك الناس الذين يجعلونك تحتار في انطباعك الأول عنهم.

- *آه! ها هم وصلوا!*

لوَّحت بيدها الشمعية. عائلة «ماتسموتو»! حركة جسدها جامدة. وجدت نفسي أقف أمام امرأة لم يكن بينها وبين قرينتها في الصورة أدنى تشابه. كانت غير مهذبة على الإطلاق. تضحك بصوت عالٍ.

نتصرف كشخص عازم النية على ألا يدع أحدًا يحبه. رمقتني بنظرة من أعلى لأسفل لاوية شفتيها، وقالت:

- *ها أنا أخطئ في الاختيار مَرَّة أخرى. الصورة مجرد نسخة. الأصل مقارنةً بها غير مُثير للاهتمام.*

قالتها بابتسامة. أسرتني.

- *تحب القراءة والغناء.*

هذا ما أكدته «أوكادا». قاطعتها «فومي»:

- *أكثر الكتب والأغاني التي أحبها تتحدث عن تزويج عائلة لا بنتهم رغمًا عنها.*

حلَّ الصمت. مسحت «أوكادا» جبهتها وحاجبها بمنديل، أكلا والداي الطعام ببطء وإحراج. قالت «فومي» وفمها ممتلئ:

- *في حال أنكم لم تلحظوا الأمر، أنا أرتدي باروكة في الصورة.*

وقف الطعام في حلقي. سعلت وخرج الطعام من فمي. قَفَزَت وضربتني على ظهري.

- *حسنًا، الآن تعرف أنني أستطيع الضرب بقوة. لا أستطيع القراءة والغناء فحسب. أستطيع، لو اضطررت إلى ذلك، أن أضربك*

ضربة لن تنساها سريعًا.

تدخَّلت «أوكادا»:

- يا له من أمر لطيف! لديها حضور ذهني! سمة مفتقدة في غالبية الشابات.

انفَجرتُ في ضحك هستيري. قُلتُ لها:

- عذرًا!

- لا عليك. لا ينبغي أن يعتذر الرجل عن ضحكه، ولا المرأة عن دموعها.

أنزلت «فومي» شوكتها وسكينتها على الطاولة، وقالت:

- أحيانًا أشعر بالرغبة في افتراش الأرض وترطيبها بدموعي. هل تريد فهم ذلك؟ هل تريد تحمُّله؟

عبس حاجبيها. كان وجهها - أقصد الأصلي - المتكئ على ذقنها يتفحصني مباشرةً. أجبتها:

- نعم، أريد ذلك. أريد أن أُجرِّب.

تفاجأتْ وقالت بصوت خفيض:

- أنت أحمق.



احمرَّ وجهه.

لم يكن احمرار وجه شاب يتحدَّث عن حُبِّهِ الأول. كان احمرار وجه رجل تقدَّم في السن، ينحني أمام حب حياته الأول والأخير. كان احمرار وجهه نفَّاذًا، يشعُّ عبر جلده المُترهِّل، ويُنير الفضاء المُحيط بنا لعدَّة ثوانٍ. احمرَّ وجهي معه. أزيز. طنين. انتهت أسطوانة الموسيقى. نادى أحدهم:

- شغِّل «بيلي هوليداي» مرَّة أخرى!

همهمة بالموافقة. رفعوا كؤوسهم وقالوا لبعضهم بعضًا فوق الطاولات:

- نحبك.

- أليس ذلك غريبًا؟ أكثر ما أغرمتُ به في «فومي» هي كلمة «أحمق» التي كانت تقولها لي. أغرمتُ بنظرتها المستقيمة الحُرة التي ترى من خلالها ما بداخلي. أردتُ أن ترى ما بداخلي، لكن الأمر كان صعبًا. كلما تقابلنا، كانت تذهب في اتجاه مختلف. أعتقد أنها لم تكن تعرف إلى أين تذهب. كانت تسلك طريقها مباشرةً، ليس بالضرورة على أمل الوصول إلى مكان ما، ولكن بدافع السعادة المُطلقة في أن تكون على الطريق. قالت:

- أنا نبات، أحتاج إلى النار، والهواء، والأرض، والماء. دون ذلك سأذبل. وأليس الزواج ذبولًا؟ النار ستنطفئ. الهواء سيضعف. الأرض ستجف. الماء سينضب. سأذبل. وكذلك أنت.

رمت شعرها على كتفيها. نبات «الخزامى» أرجواني اللون. قاطعتها:

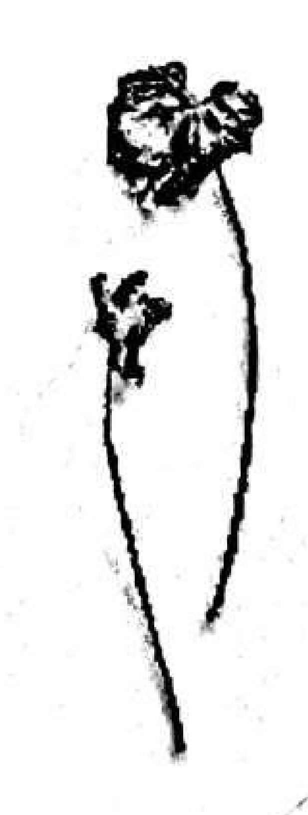
- وإذا لم يحدث ذلك؟ ماذا لو أصبحت الحياة اليومية، حياتنا اليومية، هي وعدي لكِ؟ فرشاة أسنانك بجوار فرشتي. لن تغضبي لأنني نسيتُ إطفاء نور الحَّمام. نختار معًا ورق الحائط الذي سنجده بعد عام بشعًا. تقولين لي: «لقد صار لك كرش». حماقاتك. تنسين شمسيتكِ مرَّة أخرى في مكان ما. أشخر فلا تستطيعين النوم. أهمس باسمكِ في أحلامي: «فومي». تربطين لي الكرافتة. تلوِّحين لي عندما أذهب إلى العمل. أراكِ علَمًا مرفرفًا. أرى ذلك، وأنا أشعر بألم حاد

في صدري. يا إلهي، أليس ذلك كله كافيًا؟ أليس كافيًا لتكونين سعيدة؟

تملَّصت مِنّي قائلة:

- امنحني بعض الوقت. سأفكر في الأمر مليًّا.

58



- انتظرتُ لمدة شهر، وأخيرًا وصل إليَّ خطاب بخط يدها، خط انسيابي، أرفقتْ مع الخطاب زهور مجففة مضغوطة، كتبتْ لي:

«جوابي: نعم، نعم أريد أن أضيِّع آلاف الشمسيات، ما دام لن يصير لك كرش»،

كتبت لها بخط مُتردد:

«هيا بنا نذهب لاختيار ورق الحائط»،

هذه هي زوجتي،

أخرج من محفظته صورة،

أول فكرة خطرت ببالي، أمي. الفكرة الثانية، إنها تشعر بالذنب نحوي. إنها تريد البكاء.

أكمل قصته:

- أُقيم حفل زفافنا بعدها بأسابيع قليلة في أحد المعابد البوذية. كانت «أوكادا» حاضرة، ملامح وجه يبدو عليها بالشعور بالذنب. لقد كانت دون أدنى شك شخصًا غير ودود، غير ودود إلى أبعد الحدود. أرادت أن تقول: «أنا آسفة»، لكنها قالت كالشمع المُتيبِّس:

- *أتمنَّى لكم سعادة أبدية.*

شكرتها «فومي»، وقالت بضحكة بريئة:

- *ما الذي يدوم؟ نحن ألعاب نارية. نتوهج ثم ننطفئ، يتطاير منَّا الشرر الذي انطفأ بالفعل.*

قهوة سادة. أُضيف لها كأس حليب صغيرة. ملعقتا سكر. تقليب بطيء. صوت آخر قطرات تسقط من الملعقة. وضع الملعقة على الطاولة بحذر. كان أول صباح لنا مثل القهوة التي تُصب فيها الحليب والسكر. عندما استيقظتُ، لم تكن «فومي» بجواري. وسادتها مضغوطة، شعرة عالقة في نسيجها. ما زال غطاء السرير دافئًا، حرَّكتُ يدي تحت اللِحاف. جاءت من المطبخ أصوات ماكينة

القهوة، إنها هدية زواجنا. مشيتُ عبر الردهة حافي القدمين. توقَّفتُ عند الحيِّز المفتوح من الباب، ولم أرَ من خلاله سوى ظهرها الذي كان مُنحنيًا قليلًا فوق البوتاجاز. طشطشة المقلاة. إصبعها في وعاء، تذوقت ما فيه سريعًا. رشة ملح، بعض الفلفل. عطست. استدارت وهي تعطس. صوتها، يشبه صوت جرس صغير رنَّان حينما قالت:

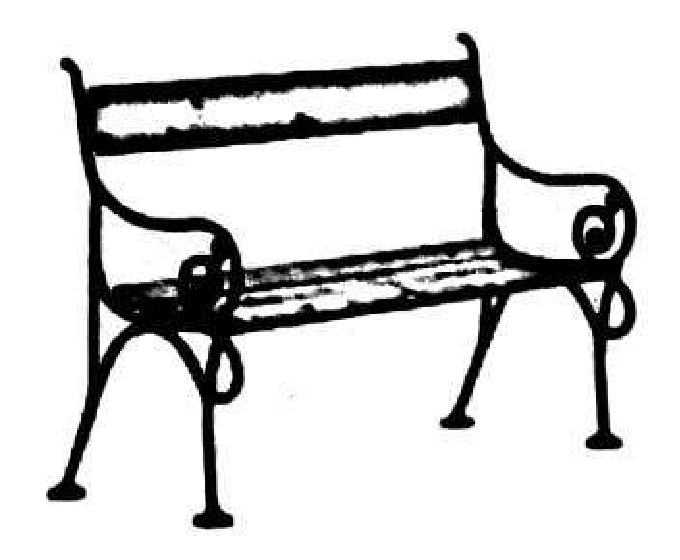
- *الإفطار جاهز.*

على المنضدة علبة «البينتو» ملفوفة في قماش أزرق.

- *إنها لك. وضعت معها تفاحة.*

حياة هادئة.. وهذا أيضًا كان قرارًا.. سمعتُ ذات مرَّة أن ما يحدث في الصَّباحِيَّة سيتكرَّر للأبد. إنه لائحة، تُقرر مَن سيستيقظ أولًا، مَن سيُعد القهوة، مَن سيجهز وجبة الإفطار. كان من الممكن أن تبقى «فومي» في السرير مثلي، أن تدير رأسها بعيدًا وتقول بتذمُّر: «اشترِ لك شيئًا وأنت في الطريق». القرار الذي سحب أنفاسي وأنا واقف عند الحيز المفتوح من الباب؛ لم يكن حبي لها ليقل حتى وإن فعلت ذلك.

59



- أجَّلنا شهر العسل. كانت الشركة في ذلك الوقت بحاجة إلى كل الموظفين، وكما هو الحال، لم نستطع تعويض هذا الشهر مطلقًا. غطى التراب كتب دليل السفر القديمة: باريس، روما، لندن. وجدتها مؤخرًا على الرَّف في أول صف للكتب. مطوي بعض أطراف صفحاتها التي بها ملاحظات هنا وهناك. وضعت «فومي» علامة على كل المعالم السياحية التي تريد زيارتها. برج «إيفل»، «الكوليسيوم»، «تاور بريدج». لا شيء سوى قلوب. في إحدى الصفحات، صادفت رسمة، صورة لي مكتوب تحتها: «تيتسو يدخِّن في حي مونمارتر». رسمتني جيِّدًا. أول زر في قميصي مفتوح. الرياح تُحرِّك شعري. أنظر إلى الأمام. نسخة منِّي في شبابي، نادت عليَّ. لم أستطع الرد عليها، أغلقتُ الكتاب بصوتٍ عالٍ.

مَن كان يمكن أن أكون؟

مَن أصبحت؟

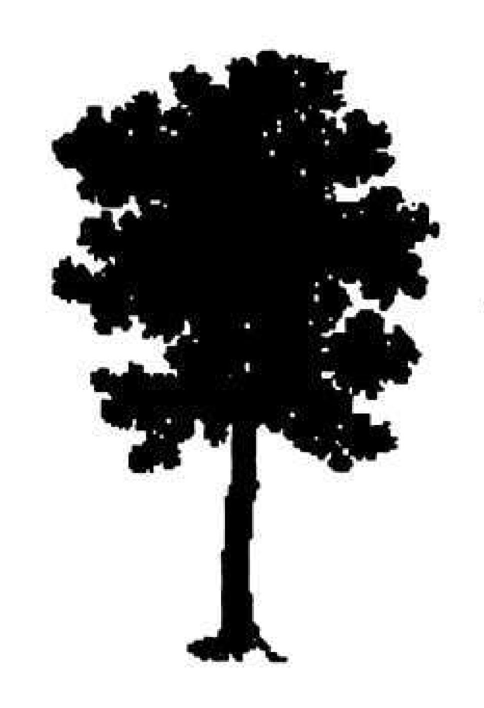
مَن سأكون، عندما تكتشف مَن أنا؟

«فومي» تعرف بالفعل. أنا متأكد. إنها تنتظر فقط حتى آتي لها من تلقاء نفسي مُطأطئ رأسي، وأقول لها: «كنتِ على حق. لا توجد حياة يومية سعيدة. عليك أن تجاهد صباح كل يوم للوصول لها».

سعل. طفاية السجائر كانت بيننا، مُمتلئة عن آخرها.

- لم نستطع السفر حتى إلى جزيرة «مياجيما».

60



- «مياجيما».

كرَّرها:

- «مياجيما». لقد ذكرتها من قبل. ما كان اسمها الأول؟ هل كان «يوريكو»؟ «يوكيهو»؟ كان على لساني. «يوكيكو»؟ صحيح؟ حسناً، طفلة الثلج. من فضلك احكِ لي عنها. ليس لديَّ الآن أي مانع أن أغمض عيني وأنصت لك فقط. من الأسهل التحدُّث دون أن ينظر إليك أحد. من الأسهل السماع دون النظر للمُتحدِّث.

سحب نفساً عميقاً من رئته، ثم اتَّكأ إلى الخلف وأغمض عينيه.

بدأتُ حديثي:

- كانت عائلة «مياجيما» جيراننا. منزلهم بجوار منزلنا مباشرةً. عندما كُنتُ طفلًا صغيرًا أبلغ من العمر ثماني سنوات، كُنتُ أدقُّ جرسهم كثيرًا، وأسأل عن «يوكيكو». كانت الطفلة الوحيدة من سِنِّي في الحي الذي أسكن فيه، وعلى الرغم من أن والديَّ لم يحبا والديها، إذ قالا إنهما لا يعرفان من أين جاءا، لكنهما ارتضيا بأننا في الأول والآخر طفلان يلعبان معًا من حينٍ لآخر أمام المعبد الذي يقع على بُعد عدَّة مبانٍ من منزلنا. كلمات كثيرة للغاية. أعلم ذلك. كلمات كثيرة للغاية لا تُعبِّر عن بساطتنا وعدم إصدارنا أحكامًا مسبقة على غيرنا، أنا وهي، في عَالَم يُميِّز بين البشر. عالم تكفي فيه كلمة واحدة للتمييز بين إنسان وغيره.

لكنني قُلتُ لنفسي: «سأدق جرسهم». أم «يوكيكو» تُخرج رأسها من الباب، وتقول بصوتٍ أجش:

- ستأتي حالًا.

يُغلق الباب مرَّة أخرى، ثم يُفتح ثانيةً بعد بضع دقائق. رائحة ملابس «يوكيكو» الكريهة، أشمُّها كل مرَّة يُفتح فيها الباب ويُغلق. كانت ترتدي بلوزة مكشكشة متَّسخة، تنورة كانت كبيرة جدًّا عليها، ربطتها عند خاصرتيها بخيط صوف. كان أحد رباطيّ حذائها مقطوعًا. سمعتُ الناس يقولون عنها عند مرورنا بجوارهم:

- *فتاة فقيرة.*

بينما كانت ضحكة «يوكيكو» تغطِّي على أصواتهم قائلة:

- *هيا بنا نطير اليوم!*

بسطت ذراعيها وطارت أمامي حتى وصلت إلى شجرة الصنوبر الملتوية، وحوَّطت جذعها بأجنحتها. زقزقت كالعصافير واضعة أحد أذنيها على الشجرة:

- *لقد نما جذعها للتوِّ بمقدار ملليمتر واحد.*



- كانت أيامًا خالية من الهموم. أعني أننا كنا نطير حقًّا. كانت أرض المعبد بمثابة السماء التي نطير فيها. كنا نقطف الزهور ونضعها على مقابر أناس لا نعرفهم. نمسك حشرات «الزيز»، واليعسوب، والفراشات، ثم نحررها بمجرد أن نمسك بها. نحن أيضًا كنَّا أحرارًا. عندما كان الجو حارًا، كنا نصبُّ دلوًا من الماء على أذرعنا وأرجلنا. لدغنا البعوض. طاردنا قطة المعبد. استمعنا إلى ترنيمة الراهب الرتيبة. كان ظهره أسود. يُدير وجهه إلينا أحيانًا، ثم يصيح:

- *أبناء بوذا!*

ويرمي لكلٍ منَّا قطعة حلوى.

- *إنها لذَّة التنوير المُفاجئ*، جميلة جدًّا.

نادرًا ما كُنتُ أتحدَّث عن «يوكيكو» في المنزل. عندما كان يسألني

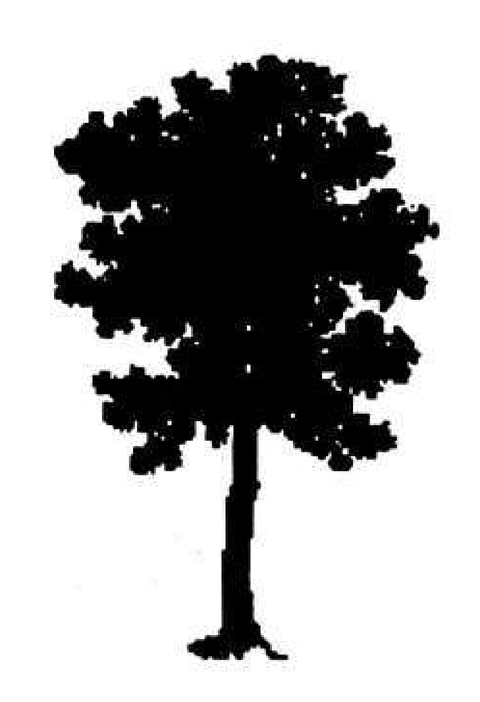
أحد عنها، كُنتُ أشعر أن السؤال ليس بدافع الاهتمام، ولكنه بسبب قلقٍ ما. كانت أمي تقول:

- *يجب أن تعرف مَن الذي تختلط به، وأن تتعامل معه حسب شخصيته، سواء كانت جيدة أم سيئة.*

سمحتْ لي بالذهاب بعد قولها هذه الحِكم، لكنني شعرت أثناء السير كما لو أن أحدهم أمسك بي بعنف. سواء بسبب نبرة أمي أم حركة فمها عند الحديث عن عائلة «مياجيما»، شيءٌ ما أخبرني بخطورة أن أبوح لـ«يوكيكو» بالكثير. لذلك احتفظت لنفسي بمعلومة أن هناك زِرَّين ناقصين من سُترتها، وأن هذا الأمر لم يعْنِني على الإطلاق.

لكن الشعور بتهديدٍ ما غير معروف ظلَّ موجودًا. إنه يشبه شوكة صغيرة في صدري تنغرس أعمق فأعمق، وحتى أصغر شوكة، الشوكة الأصغر على الإطلاق، تُخلِف جرحًا في الجسد، عندما تخترق العمق بما فيه الكفاية. تشعر أنها جسم غريب، يهزم الجسد الموجود فيه شيئًا فشيئًا.

62



- سألت «يوكيكو» ذاتَ مرّة بينما كنّا جالسين في ظلّ شجرة الصنوبر:

- كيف أصبحتِ مختلفة جدًّا هكذا؟

ردّت عليَّ بجملة كانت تحفظها عن ظهر قلب:

- لأنني سقطت من نجم.

- من نجم؟!

حبستُ أنفاسي.

أومأت برأسها.

- عثر والداي عليَّ في صندوق بجانب النهر. كان مُعلقًا حول

رقبتي ورقة صغيرة مكتوب فيها أنني أميرة «كوكبة القيثارة» التي تم اختيارها لتحيا بعيدًا عن موطنها حياة الإنسان. لكن ششش! هذا سر، لو عرف أي شخص به، أقسم لك أنني سأتحلل إلى تراب نجمة.

صرتُ فضوليًّا وسألتها:

- وملابسكِ؟

ضيَّقت عينيها، وفكَّرت في الأمر مليًّا، ثم فتحتها فجأةً، وصاحت:

- إنها ملابس تنكُّرية! كل شيء تنكُّري! أرتدي ملابس متسولة كي لا أتحلل.

لفَّت أطراف خيط الصوف حول خنصرها، وهمست:

- أحيانًا أشعر بالحنين إلى وطني.

قلتُ لها:

- أنا أيضًا.

- هل هذا يعني أنك تصدّقني؟

- نعم. أصدّقكِ.

- وهل تعدني ألا تكشف سري لأحد؟

- أعدكِ.

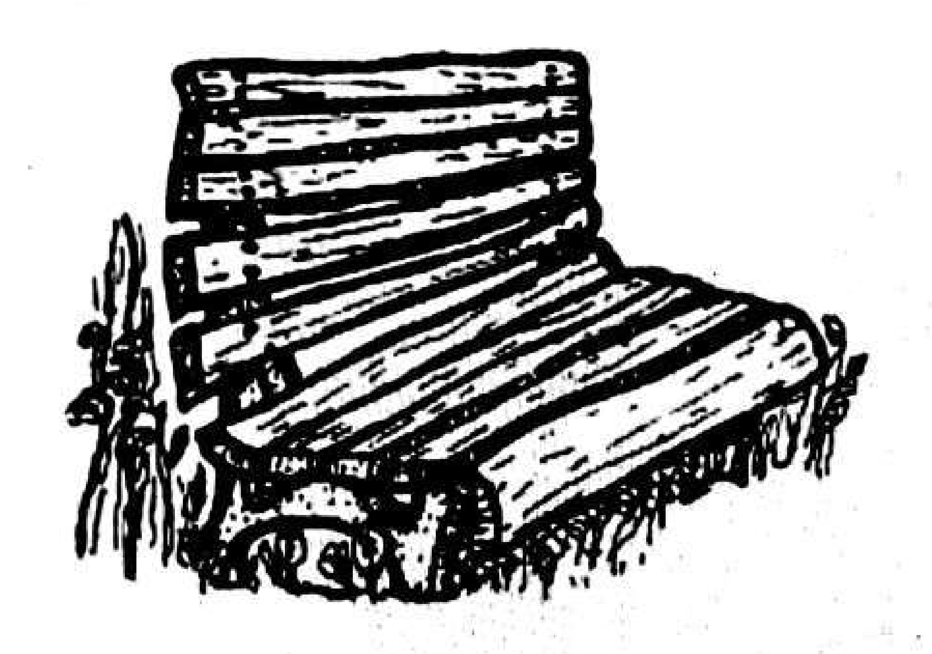
يدها في يدي.

أصدقاء. إلى أبد الآبدين.

حفرنا أسماءنا بسكينة صغيرة في لحاء الشجرة. أعلنتها «يوكيكو»: «شجرة صداقتنا». أخرجتْ خيطًا أحمر من جيب تنورتها، وربطته حول أحد أفرع الشجرة، ثم أكملت حديثها:

- *يجب أن يُذكّرنا الخيط الأحمر بأننا مُقترنان ببعضنا بعضًا. بما أنني ائتمنتك على سرّي، فأنت مدين لي. وبما أنك وعدتني ألا تكشف سرّي لأحد، فأنا مدينة لك.*

كان اتفاقًا جدّيًّا. ابتعد الظل. سطعت فوقنا الشمس. تساقطت أوراق الشجرة المُذَبَّبة على رؤوسنا.



- أصبح عمرنا تسع سنوات، ثم عشرًا. مع كل عام مرَّ، زاد إدراكي. لا لقد صار في الواقع أسوأ. بدأ إيماني بقصص الطفولة الخيالية يتضاءل بمجرد أن صارت محل شك، وبدأتُ فجأة أنظر للأمور عبر عيون مدققة، عيون متشككة، عيون فقدت القدرة على الرؤية تمامًا. كانت رؤيتي مهترئة، تمامًا مثل جوارب «يوكيكو» التي ملأتها الثقوب. في النهاية، كان كلام والديَّ صحيحًا. لم يكن لدي أي فكرة عن الشخص الذي أختلط به، وحتى لو كُنتُ لا أهتم إطلاقًا إذا ما كان شخصًا جيِّدًا أم سيِّئًا، فإنني شعرتُ بغضب شديد مُتزايد تجاه «يوكيكو»؛ لأنها أخفت عنِّي حقيقتها وحقيقة أصلها.

حاولتُ إخراج المعلومة منها. سألتها:

- من أين أنتِ؟

جلسنا ظهراً لظهر، قطفنا أعواد العشب من الأرض. صار الخيط الأحمر فوقنا باهتًا.

- قولي لي، من أين أتيتِ؟ من أين أتيتِ حقًّا؟

ضَغطَتْ كتفها على كتفي شيئًا ما.

- أنت تعرف.

- ما الذي أعرفه؟

- لا أستطيع أن أخبرك.

- لَم لا؟

عظام كتفيها ترتجف.

- لَم لا؟

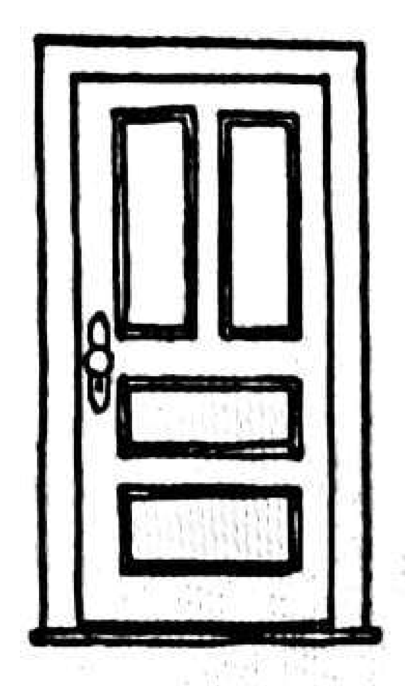
هدأت عظامها. قطعتُ حزمة من عشب الأرض ورميتها على جدار المعبد.

- أرجوك سامحني.

حرَّكت ظهرها بعيدًا عنِّي شيئًا ما. فجوة باردة بين ظهرينا، هبَّت

عبرها الرياح. وددتُ أن أقول لها: «لا عليكِ. أسامحكِ».

لكنْ لم يمنعني سوى الغضب الشديد الذي كان بداخلي، ألمٌ غاضب.



- في اليوم التالي، قمتُ برنِّ جرس منزل «مياجيما». أخرجت أمها رأسها من الباب كالمعتاد، وقالت بصوتٍ أجشَّ:

- ستأتي حالًا.

انغلق الباب. كانت هناك رائحة عفنة. سمعتُ من الداخل صرخة عالية، ثم همسًا خافتًا، صار أكثر خفوتًا.

- *... ماذا يعني أنكِ لا تريدين رؤيته؟ ما هذا الهراء الذي تخجلين منه؟...*

توقَّف الهمس. صار المنزل بعدها هادئًا، ولم يكسر هذا الهدوء سوى صرخة واحدة:

- *... لا أستطيع التحمُّل أكثر من ذلك...*

ثم عاد الهدوء مرّة أخرى. فُتح الباب، رائحة تعفُّن. أخرجت أمها رأسها، وقالت:

- *هل من الممكن أن تأتي لاحقًا؟ ربما غدًا. ربما بعد غد. ابنتي، الأميرة، مزاجها حاليًا ليس على ما يُرام.*

كان عدد المرَّات التي وقفتُ فيها أمام بابها وقمت برنِّ الجرس لا يعد ولا يحصى. عدد المرَّات التي ظلَّ الباب فيها مُغلقًا لا يعد ولا يحصى. وراء هذا الباب نجمة مُتلألئة؛ «يوكيكو». ضوؤها المشع يُخفي حقيقة أنها انطفأت منذ فترة طويلة. عيون الجيران تنظر إلى ظهري وأنا أحاول أن أمد يديَّ نحوها لأصل إليها، لكن دون جدوى. بعدما سمعتُ ثرثرتهم، كان علي أن أدرك أنها حلقت في الفضاء لسنوات ضوئية.

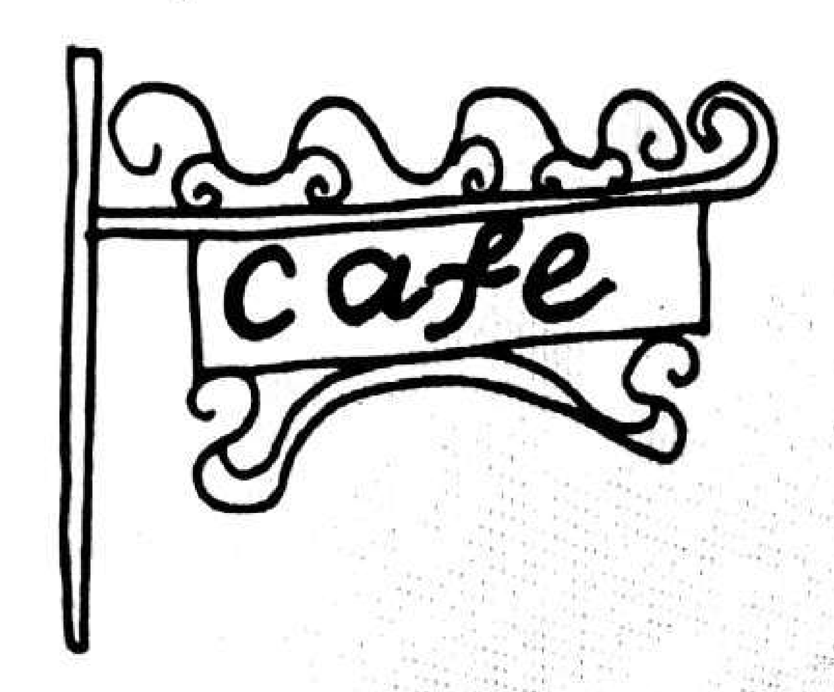
«عائلة مياجيما تأكل الكلاب والقطط». «عائلة مياجيما تشوي النمل». «عائلة مياجيما تشرب من برميل المطر». «عائلة مياجيما...» كثُر الكلام السيئ عنهم. في حينِا، كانوا نقطة الضعف المُزعجة التي ينبعث منها الخوف. الخوف من أن نصبح مثلهم. حتى والديَّ سيطر عليهما هذا الخوف. لاحظت ذلك من رضاهما الواضح أثناء جلوسي على العشاء مُطأطئ رأسي. قالا لي:

- الأصدقاء يأتون ويذهبون. من الأفضل أن نتعايش مع الأمر. في مرحلةٍ ما، سوف تنظر إلى الماضي، وتدرك أن كل ما حدث له معنى ومغزى.

عبارات جوفاء جعلتني أجوف من الداخل. لم يكن لديَّ أي اعتراض على ما قالاه. من خلال آخر ما تبقَّى لديَّ من مقاومة، كتبتُ لها خطابًا:

«عزيزتي يوكيكو، دعينا نلتقِ مرَّة أخرى عند شجرتنا. أريد أن أراكِ وأفهم ما بكِ، أن أودعكِ، أن أقول لكِ...».

محوتُ تكملة هذه الجملة كثيرًا إلى أن صارت الورقة رقيقة ومكرمشة.



«... أن تريد حُبًّا لا يمكن أن يكون صادقًا...».

رعشة شديدة تحت جفونه. توقَّفت عن الحديث. أصوات حشرجة أسطوانة الموسيقى. بصوت هادئ ومُحبَط، طلب شخصٌ على الطاولة المجاورة ويسكي. رفع أحدهم الستارة. أمطار قوية. سقطت الستارة بشدة على النافذة. المقهى الذي تحرَّر من لعنة ضوء النهار أصابته مرَّة أخرى لعنة ظلامه. لا أعلم كيف كُنتُ أعتقد أنه لا توجد مسافات بين الناس في المقهى. فهنا يجلس كل شخص غارقًا في كرسيه، مستغرقًا في أفكاره. سألني وهو لا يزال مغمض العينين:

- هل جاءت؟

بعد أن أحاطت بنا سحابة الدخان القاتمة، لم يعد لون كرافتته أحمر

في رمادي. كان رماديًّا، رماديًّا فقط.

كرَّر سؤاله:

- هل أتت؟

عندما لم أرد عليه، قال:

- لكنها يجب أن تأتي. أليس كذلك؟ لقد أتت!

قالها بإلحاح، كما لو أنني لستُ الشخص الوحيد الذي أنتظر مجيئها، بل هو أيضًا، كما لو أن مجيئها أمرٌ يهمنا نحن الاثنين.

رددتُ عليه في النهاية:

- نعم، لقد أتت «يوكيكو».

- حسنًا كما قلت.

تنفَّس الصعداء.

- لكن...

- لكن ماذا؟

- صارت غريبة عنّي. بعد قرابة أربعة أشهر، تعرَّفتُ إليها بالكاد. كانت ترتدي زيَّها المدرسي، بدت كفتاة عادية، شعرها ذيل حصان

يتمايل. كانت تحيد نظرها بعيدًا عندما تأتي باتجاهي، كما لو كانت تشعر بالخجل. تقف أمامي مُطأطئة رأسها. لم أتعرَّف إليها إلا من رائحتها. يا له من موقف مُزعج. كان لديَّ رغبة في إيذائها. مسكتها من كتفيها بيديَّ البالغة من العُمر أحد عشر عامًا. هززتُها. صفعتُها على وجهها، تلك المستسلمة لا ترد عليَّ.

- *لماذا لا تنظرين إليَّ؟*

رفعتُ وجهها.

- *يجب عليكِ أن تنظري إليَّ. افعلي هذا على الأقل. أنا أكرهكِ. هل تسمعينني؟ أكرهكِ لأنك جعلتيني أصبح واحدًا منهم؛ هؤلاء الذين يتحدثون عنكِ.*

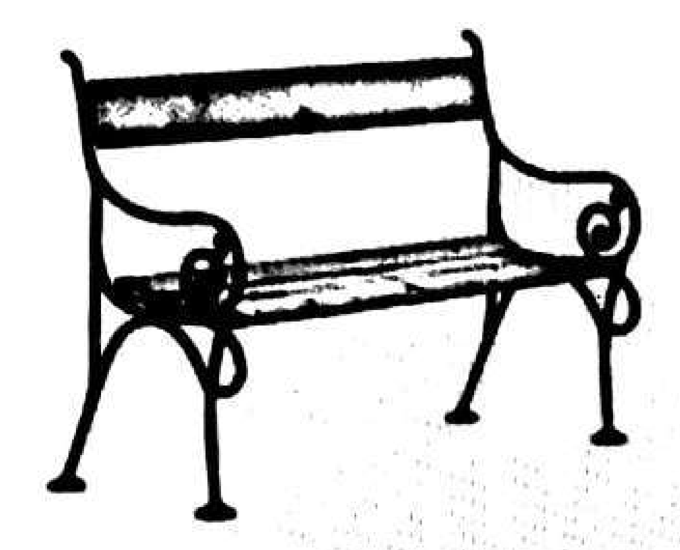
نَظَرَتْ إليَّ أخيرًا:

- *ما يقولونه صحيح.*

التقت أعيننا. اقتربنا. اقتربنا أكثر. قبَّلتها. ابتعدنا. ابتعدنا أكثر. شيءٌ ما انتهى. دفعتها بعيدًا. استدارت. ذهبت كطائر بلا أجنحة إلى الساحة الرملية. صرختُ فيها:

- *ما بيننا انتهى. انتهى تمامًا.*

لكن الفتاة ذات الجوارب البيضاء كانت قد اختفت بالفعل خلف الشجيرات. دوَّت من المعبد صلوات بوذية.



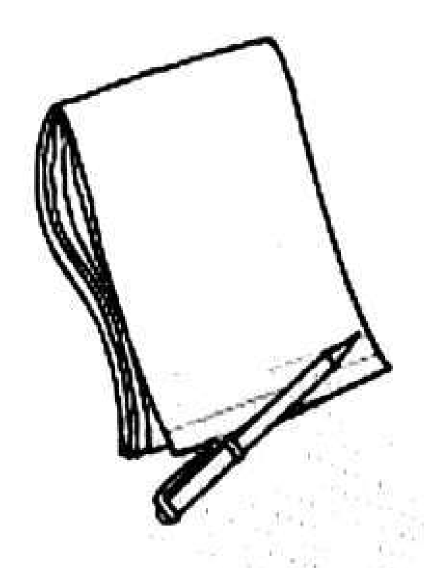
- كيف أصف المرارة التي شعرتُ بها؟ كُنتُ كوبًا مكسورًا، والفراغ الذي كان بداخله قبل أن ينكسر، صار هو والفراغ المحيط به سواء. مساحة قاحلة ضللتُ فيها الطريق. تحت قدميَّ سكاكين حادَّة. مع كل خطوة خطوتها، صارت احتمالية الوصول إلى أي مكان أكثر استبعادًا.

ظللتُ لفترة أتجنَّب المرور بمنزل عائلة «مياجيما». بدلًا من الانعطاف يمينًا، انعطفتُ يسارًا، بدلًا من الذهاب في طريق مستقيم، سلكتُ طرقًا مُلتوية، وعندما لم أستطع تفادي منزلهم، كُنتُ أسير على الجانب الآخر من الطريق. كُنتُ أرتجف من فكرة أن تكون «يوكيكو» واقفة عند النافذة أو أن أصادفها في الشارع. جعلتني الفكرة ضئيلًا وصغيرًا. قد تشير إليَّ بإصبعها، قد تُذكِّرني بذنبي. كُنتُ أتمنى حدوث ذلك تقريبًا. كُنتُ ضئيلًا وصغيرًا جدًّا لدرجة أنني

شبه تمنَّيتُ لو أنها صديق أسوأ منّي.

لكنها لم تكن كذلك.

سرعان ما نسيت أننا كنا ذات يوم صديقين، ومثلما نسيت سريعًا، فَقَدَ كل ما حدث أهميته سريعًا. أزال نسياني طعم شفتيها من على شفتيَّ. لم أكن أتذكَّر سوى القليل عن اللحظة التي لمست فيها بعضهما بعضًا. سألتُ نفسي إذا كانت قُبلة من الأساس. بدت لي أنها أقرب إلى تلامس بين شفتين. لكن حتى هذا نسيته.



- هنا يجب أن أقول إن تجنُّبها كان تمرينًا بسيطًا. على الرغم من أن عائلة «مياجيما» كانت تسكن بجوارنا مباشرةً، لكن مرَّت سنوات دون أن أصادف أحدًا منهم. كثرت الإشاعات حولهم؛ قيل إن والدها يلازم الفراش بسبب مرضه، وإن أمها تعمل ورديات ليلية. لم يكن واضحًا ما المقصود من مثل هذه الإشاعة، وعلى أي حال، نادرًا ما كان يراها أحد، وعندما كان يحدث ذلك، كانت دائمًا في عجلة من أمرها، شعر أشعث على جبهتها، مُحمَّلة بحقائب وأكياس. انتشرت إشاعة أنها تحمل بضائع ممنوعة، وإشاعة أخرى أنها مجنونة، لكن الإشاعة الأخيرة هي التي استقرت: «إنها مجنونة». على الرغم من أن لا أحد يستطيع الادعاء أنه شاهدها، لكن يمكن الادعاء على الأقل أن جنونها كان مكتوبًا على وجهها. الاستنتاج الذي تمَّ الإجماع عليه: «هذا الشيء يمكن رؤيته. يمكن رؤيته دون النظر إليه». لم تحظَ

«يوكيكو»، «الفتاة المسكينة» كما كانوا يسمونها، ببعض التقدير إلا بعد فوزها بالمركز الأول في مسابقة للرياضيات، ولكن مَن يعلم إن كانت هذه القصة صحيحة أم مُختلقة؟ كان هناك شيء واحد مؤكد، من الأفضل عدم الاحتكاك بعائلة «مياجيما» نهائيًّا. وبالنسبة لي، كان ذلك مؤكدًا أيضًا إلى أن يكون للقدر كلمة أخرى.

ثم قلتُ: «حتى تحدث صدفة غبية نتقاطع فيها طُرقنا للمرَّة الأخيرة».

كنتُ في السادسة عشرة من عمري. بدأت سنة دراسية جديدة. نُودي على أسماء التلاميذ في الفصل. جلستُ في ملل، أُدير في يدي قلم رصاص مقضومًا طرفه. حولي ثلاثون آخرون يشاركونني الشعور نفسه. العطلة، التي لم تكن عطلة، انتهت مُجددًا، وكان لدينا هاجس قاتم بأن الأمر سيكون دائمًا هكذا، أن الحياة، التي لم تكن حياة، تسارع دومًا نحو نهايتها.

- «فوجارا ري»!

- موجودة!

- «هاياشي دايتشي»!

- موجود!

- « كوجيموتو ساكويا»!

- موجودة!

- «يوكيكو مياجيما»!

- موجودة!

انكسر القلم الرصاص. لم أرفع عينيّ. كانت موجودة..

موجودة. موجودة.

- «أوياما هاروكي»!

- موجودة!

- «هيرو تاجوشي»!

- موجود!

... خيط أحمر.. خيط القدر.. إلى أبد الآبدين...

- «أويدا ساكيكو»!

- موجودة!

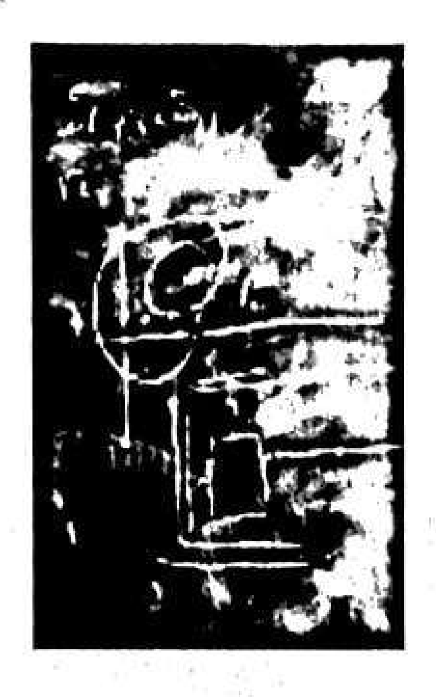
- «ياماموتو إيكو»!

- موجود!

كانت ظَهراً. ظَهراً نحيلًا. هذا كل ما كانت عليه. أحيانًا أشعر بالحنين إلى الوطن. فراشات صفراء وزرقاء وخضراء. الغبار يتطاير من أجنحتها. رداء الراهب الأسود. الصلوات البوذية. نغمة مفردة رتيبة، أنا أكرهكِ. هل تسمعيني؟ لا يهمني، الأصدقاء يأتون ويذهبون. ألا تستطيعين الذهاب؟ أيتها الأميرة. أنا مدين لكِ. ششششش. مساحة قاحلة بيننا. السماء تنهار. أريد أن أقول لكِ: «ما بيننا انتهى».

سن القلم الرصاص مغروس في راحة يدي.

انتهى الألم.



- إذا كُنتُ نجحت لسنوات في تجنُّب أناس يسكنونَ في المنزل المجاور لنا مباشرةً، فسأنجح أيضًا في عمل قوس عريض يعزل دكَّتها التي تبعد عن دكَّتي بثلاثة صفوف، هذا ما عزمتُ على فعله في ذلك اليوم. على كل حال، كانت هناك مساحة كافية كي لا نصادف بعضنا بعضًا، وكما قلتُ، لقد تدرَّبتُ على ذلك. لم يكن هناك شيء أسهل بالنسبة لي من سلك الطرق الأكثر تعقيدًا لتجنُّب شخص ما. الشيء الوحيد الذي لم أكن أعرفه هو أنه عليَّ إثبات هذه المهارة في اليوم التالي.

ليس لديَّ أي فكرة مَن أطلق الشرارة الأولى. بدأ الأمر بجُملة عفوية غير مؤذية: «رائحتها كريهة». سمعتُها بوضوح ودقة: «رائحتها كريهة». ضحكات بصوتٍ عالٍ، سمعتُها أيضًا. تبعتها إشارة صامتة لها

بالإصبع، نظر أحدهم لها مُكَشِّرًا أنفه ليخوِّفها. صوت «يوكيكو»، تهمس:

- توقفوا من فضلكم!

ضحكوا مرَّة أخرى:

- رائحتها كريهة كما لو أن هناك سمكة تحت تنُّورتها.

حاول أحدهم الإمساك بها. رأيتها بوضوح ودقة وهي تتراجع فزعًا. صاح أحدهم في وجهي:

- إلام تنظر؟

نظرت بعيدًا. لم أرَ شيئًا. وهكذا في اليوم الثالث والرابع والخامس والسادس وفي كل الأيام التي تلته، لم أرَ شيئًا سوى لا شيء.

صاحت أفواه فاغرة:

- من يُصدِر هذه الرائحة الكريهة سيدفع خمسة آلاف ين. ماذا تقصدين أنه ليس معكِ مال؟ ستدفعين غدًا. اللعنة، رائحتكِ كريهة جدًّا مثل رائحة الخنزير.

أصدروا صوت قباع الخنزير.

- رائحة الجرذ الميت أفضل من رائحتِك. قولي لي يا أميرة الرياضيات، كيف يمكن قسمة الثور على البقرة؟

بسرعة شديدة، نمت تلك الجُملة العفوية التي كانت في البداية غير مؤذية، إلى أن صارت نصًّا كاملًا.

كانت «يوكيكو» بحاجة إلى صديق.

صديق يتحدث نيابةً عنها.

لكن أنا...

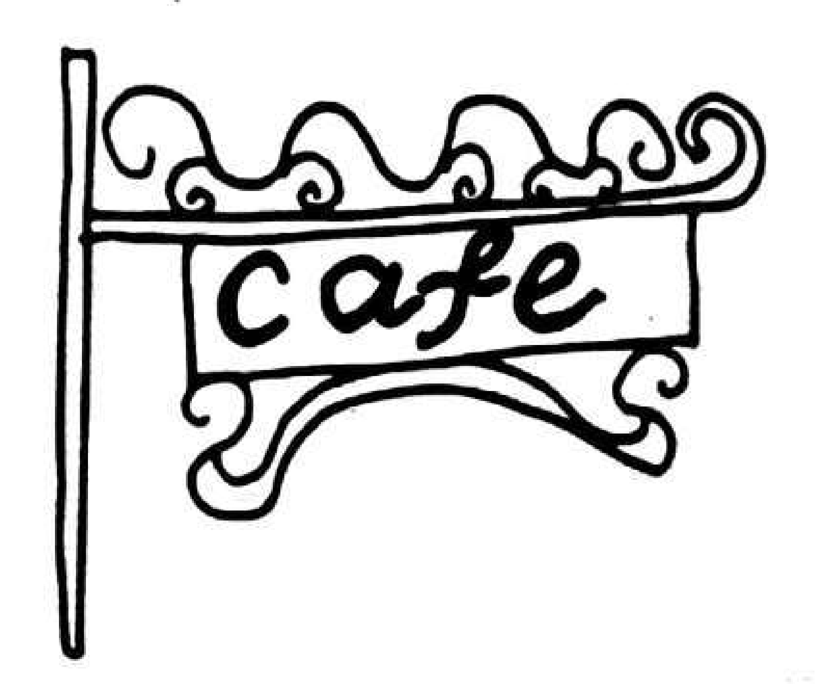
لم يكن لديَّ فم. لم أشارك الآخرون فيما قالوه عنها، لكنني لم أبدِ أي اعتراض عليه. اتبعت مبدأ «امشِ بجانب الحائط». عندما كانت «يوكيكو» تدخل الفصل كل صباح، كانت تجد دكَّتها مقلوبة وموضوعة في مكان آخر. على السبورة كاريكاتير به خنزير يقبع، رافعًا إحدى أرجله. تحته مكتوب اسمها. مَحته فورًا حرفًا تلو الآخر. تبقي «كيكو» من «يوكيكو». ثم لم يتبقَ شيء أخيرًا. في النهاية، أدارت وجهها مُمسكة بالإسفنجة المبللة في يدها، نظرة باحثة عن شخصٍ ما، وجدتني أقف وحيدًا. نظرة بها سِحر، بريق الماضي، أقسم لك أنني سأتحلل إلى تراب نجمة، هكذا بالضبط كانت نظرتها لي. كما لو أنها تريد أن تقول لي: «سأتحلل».



- لو فعلتُ... لو كنتُ... لا يوجد شيء أكثر بؤسًا من صيغة التمني في الماضي. الاحتمالات التي يُقدمها ليست قابلة للتحقيق، ومع ذلك أو لذلك فإنها تُحدد الواقع الذي حدث. لو كُنتُ تدخَّلت بطريقة أو بأخرى، لما كُنتُ جالسًا هنا اليوم.

تركتُ «يوكيكو» تدافع عن نفسها. لكنها لم تفعل أكثر من مجرد الوقوف ساكنة. تطوِّقها دائرة سحرية مرسومة بالطباشير، تضيق شيئًا فشيئًا. كانت مثل الحيوان الذي يدَّعي الموت حتى لا يفترسه الآخرون. نجح الأمر لفترة قصيرة، ثم استعاد المعتدون قوتهم، ولم يتركوها قبل أن يشمشموا بحثًا عن أكثر نقاطها ضعفًا. تقوم بحركة متهورة، فيكتشفون الموضع الذي يجب أن يخترقوه أعمق فأعمق. اللعبة لم تعد لعبة بعد الآن، أصبح الأمر يتعلق بالحياة والموت. لم أرَ

في طريق عودتي إلى المنزل كيف تمَّ زَنْقها في الجدار. لم أرَ كيف تمَّ تهديدها بقبضات اليد في الممر المظلم. لم أرَ كيف تمَّ رفع تنورتها فوق ركبتها في موقف السيارات الخالي. واصلتُ السير كشاهد صامت، تعلَّمتُ أن أتصرف هكذا في تلك المواقف. لو تدخَّلتُ آنذاك - كان حينها صيغة تمنٍّ في الحاضر - وهو احتمال وارد تمامًا، لكنت الشخص التالي الذي سيأتي عليه الدور. أمر شبه مؤكد. الأفضل ألا أدع شيئًا يحدث لي. الأفضل أن أنعطف هنا قبل أن يراني أحد.



- حسناً، الآن تعرف ما حدث.

- نعم.

- وهل تدرك الآن...؟ هل تدرك أنني...؟

- ...لقد حكيتُ بما فيه الكفاية كي أدرك الأمر.

- لا، ليس بما فيه الكفاية. القصة لم تنتهِ بعد.

سيجارة مشتعلة.

- اليوم ستعمل ساعات إضافية.

فتح عينيه، بدا وكأنه يبحث عن مكان يثبِّت عينيه عليه. في البداية، نظر إليَّ بعينين ترمشان، ثم إلى البار، ثم إليَّ مرَّة أخرى، ثم إلى

الأرض، صرير الألواح الأرضية الخشبية. ضلَّ شخص ثمل الطريق إلى المرحاض. وقف قليل الحيلة بين الطاولات، كان يجب أن يأخذه أحد من ذراعه ويرشده إلى الطريق. لكنه ظلَّ واقفًا هناك مثل نُصب تذكاري ليس له معنى أو فائدة. تمتم:

- يا خسارة!

قطع البوق حديثه.

- لا، ليس بما فيه الكفاية.

كرَّرتها مرَّة أخرى، لكن صوتي هذه المرَّة بدا خشنًا. فكرت أنه ربما من الأفضل أن أوفِّر على كل منَّا نهاية القصة. تحدَّث أحدهم بجوارنا عن الأسماك، وإذا ما كانت تنام. فكرت مرَّة أخرى، ربما كان عليَّ أن أتوقَّف عند ذلك الحدِّ. خطرت ببالي مقولة قديمة: «من الصعب إيقاظ شخص غير نائم». ما زال الثمل واقفًا في وسط المقهى. مرَّ الجرسون بجواره كما لو كان إحدى قطع أثاث المقهى. في الواقع، لقد أصبح الآن ساكنًا لدرجة تجعلك تظن أنه نام أثناء وقوفه. لكن بمجرد أن اصطدم به أحدهم ظل يترنح قليلًا مُحاولًا الوقوف ساكنًا مرَّة أخرى. استغرق الأمر عدَّة دقائق قبل أن يبدأ في التحرُّك أخيرًا. بدلًا من الذهاب إلى الحمَّام، عاد إلى مقعده مرَّة أخرى، وطلب مشروبًا كحوليًّا آخر.

اعتقدتُ أنه يجب أن أنهي القصة. هذا أقلّ ما يجب عليَّ فعله.

سمعتُ صوتي يقول:

- القصة لم تنتهِ بعد.



- تم العثور عليها في فناء المدرسة، أطرافها مخلوعة. ألقت نفسها من الطابق الخامس. وُضِعت الزهور في المكان الذي سقطت به. ورود ذابلة، قرنفل، أقحوان. كُتب على إحدى الأوراق الصغيرة الموجودة بجانبها:

«نشعر بالأسف والخجل من أنفسنا».

«عزيزتي «يوكيكو»...»

لم أضع خطًّا في الورقة. ظننتُ أنها ستظهر في أي لحظة خلف الشجيرات، وأنها ستعود بظهرها، بينما يتمايل ذيل حصانها. ستعود، حتى تصل إليَّ. ثم تواصل العودة. تمشَّى بين القبور. جريتُ مُمسكًا

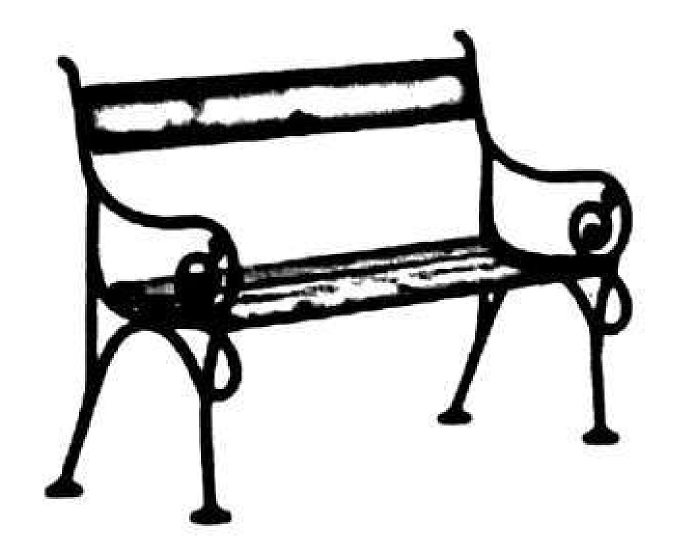
في يدي ورقة بيضاء. ربما، ربما... ظهرت الفكرة في رأسي فجأة، ربما تنتظرني هناك، في المعبد. سنجلس معًا تحت ظل شجرة الصنوبر الملتوية، ولن ندع الرياح تمر بيننا.

خيوط حمراء.

توقَّفتُ لاهثًا.

الشجرة مغطاة بالكامل بخيوط حمراء. شجرة صداقتنا، يتدلَّى من كل فرع بها خمسة خيوط، خيط لكل عام مرَّ. لهثتُ. كيف تسلَّقتْ كل هذا الارتفاع؟ كيف وصلتْ إلى قمَّة الشجرة الكثيفة؟ صارت أسماؤنا على ارتفاع أعلى مع نمو لحاء الشجرة في اتجاه الشمس. كيف عَرِفتْ أنني سآتي إلى هنا؟ أخيرًا رأيتها وفهمتها. لكن ليس تمامًا. مَن يُبدع عملًا فنيًّا هكذا، يريد أن يحفظ سرًّا ما حتى النهاية. مواء قطة المعبد. هل هي القطة نفسها؟ رفعتها وتركتها تخربشني بمخالبها. دم دافئ. ما زلتُ حيًّا. كتبتُ على ذراعي:

«عزيزتي «يوكيكو»... أود أن أقول لكِ إنني مُعجب بكِ».



- ما تبقَّى في حيِّنا كان فجوة. تم إخلاء منزل والديها بعدها بفترة قصيرة. من نافذة غرفتي، استطعت رؤية العُمَّال يضعون أقنعة على أنفهم وفمهم، ويُخرِجون القمامة والأشياء المستعملة من المنزل. الكثير من الدراجات التالفة. أوانٍ مقوَّسة. حمولة شاحنة كاملة مليئة بالصحف والمجلات. أجهزة راديو. وسائد. مراتب قضمتها الفئران. ثلاثة صناديق بها أغطية وبراغٍ ومسامير. هنا تبيَّن أن عائلة «مياجيما» ظلت لفترة طويلة تعيش من نفايات جيرانها. قالت أمي:

- يا له من عار.

كانت تقف ورائي مباشرةً.

- *انظر ماذا جمعوا! انظر، منبهنا، ها هو!*

قالت «منبهنا» كما لو أنه لا يزال مِلكنا، كما لو أنه سيظل ملكنا إلى

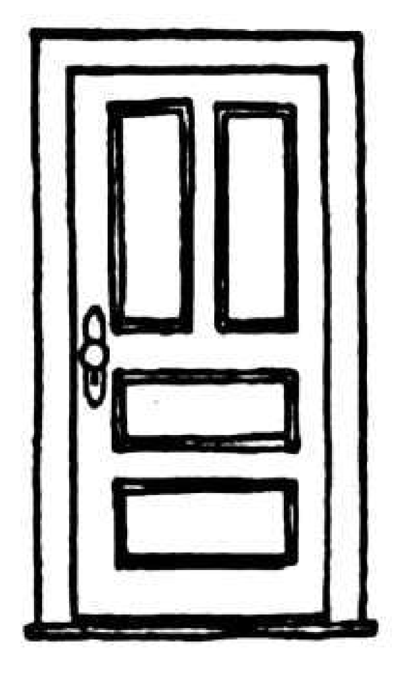
الأبد. قالت ذلك بشكل عرضي. لكن ذهنها كان مشغولًا بشيء آخر. أدركتُ أنه ليس من المنطقي تذكيرها بأنها قد رمت المنبه منذ أكثر من عام؛ لأن رنينه كان مزعجًا لها للغاية.

- *عليه أن يُوقِظ شخصًا آخر.*

بهذه الكلمات ألقت به في سلة المهملات.

آخر حمولة بلاستيك. خَرجتُ. رأيتُ علب صفيح فارغة. بطاريات. مرآة مشرَوخة، كان وجهي فيها قبيحًا مُشوَّهًا. وصلت إلى أحد الأكياس الموضوعة أمام مدخل المنزل، وأخرجت منه حجر كهرمان محبوس فيها حشرة. وضعته في جيبي، وتلمَّست سطحه. كان باردًا وناعمًا، ملمسه مُريح. تأوَّه أحد العمال من وراء قناعه قائلًا:

- *كفى عمل اليوم.*



- تم هدم المنزل. قيل إنه عديم القيمة ولا يستحق الحفاظ عليه. في طريقي إلى المدرسة، رأيتُ كيف تمَّ إغلاق الطريق المؤدي للمنزل من جميع الاتجاهات. وفي طريق عودتي إلى المنزل، رأيتُ حفَّارة تهدم آخر جدار تبقَّى منه. اهتزَّت الأرض تحت قدميَّ. بعد بضعة أيام، صار السلم الذي كُنتُ أقف عليه وأرنُّ الجرس أرضًا مستوية. وبعد بضعة أيام أخرى، تم بناء مبنى جديد. سكنته عائلة أخرى؛ أب وأم وطفل. قيل عنهم إنهم أشخاص جيدون، ربما أنيقون أكثر من اللازم. كيف بدا ذلك؟ سيارتنا «النيسان» القديمة بجوار سيارتهم «النيسان» الحديثة. صار الحديث عن عائلة «مياجيما» شبه منعدم. بعد كل ما حدث، لم يُعرف عنهم الكثير، لم يود أحد معرفة أكثر من ذلك، لقد انتقلوا إلى واحد من أفقر الأحياء المجاورة بعد

أن أثقلتهم الديون، ولم يكن أحد ليتفاجأ لو رآهم في خيمة زرقاء في أحد متنزهات حي «شينجوكو». نعم، والأبعد من ذلك سيود الكثيرون لو أنهم يستطيعون القول إنهم شاهدوهم هناك. كانوا سيشعرون بارتجاف مُهدئ. لو أنهم يستطيعون القول: «إنهم الآن في أدنى مستويات القاع». ولأن هذا الارتجاف المُهدِّئ، أو على الأقل نفحة منه، أمر لا يُعوَّض، قالوا دون أن يتحققوا من صحة الأمر: «لا شك في ذلك». حتى لو لم يصلوا إلى هذا المستوى من الفقر بعد، في يوم من الأيام سيكونون في أدنى مستويات القاع. لم يتوقف الحديث عن عائلة «مياجيما» إلا بعدما حلَّت محلها عائلة «فوجيتا» التي تسكن على بُعد مجمع سكني واحد، وصارت محور الحديث بسبب مشاكلهم الزوجية وإدمانهم القمار.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- لا شيء. أعني أن هكذا كان الأمر، وكان عليَّ أن أتقبَّله. صار عمري سبعة عشر عامًا. ثم ثمانية عشر. كلما كبرت، زاد الضغط عليَّ. صمدتُ أمامه. كُنتُ أجزِّ على أسناني وأقول: «هذا معنى أن تصبح بالغًا. أن تتجاوز الأزمات كما هي، وإن لم تتعافَ منها، أن تعتبرها انتهت، أن تنسى، أن تظل تنسى مرارًا وتكرارًا». لو لم يكن هناك «كوماموتو»، لاستطعت النسيان. لكن عينيه كانتا مثل عيني

«يوكيكو» بالضبط. النظرة نفسها التي تقول: «سأتحلل».

- إنه...

أكملتُ الجُملة نيابةً عنه.

- قرار.

- لا.

حرَّك رأسه نافيًا.

- على الأقل ليس قرارًا اتخذته من بين عدَّة خيارات. أرى ذلك الآن. في هذا المقهى.

أشار إلى اليمين وإلى اليسار.

- نحن جميعًا لسنا أحرارًا. لكن هذا لا يعفينا من المسؤولية. فعلى الرغم من افتقادنا الحرية، نتخذ دائمًا قرارات نُسأل عن عواقبها. وبكل قرار نتخذه، نفتقد حريتنا أكثر فأكثر.

هذه الفكرة، رغم صعوبتها، سهَّلت علينا القيام من مقاعدنا والخروج إلى الشارع. كانت الأمطار قد هدأت، ولم يكن هناك سوى رذاذ.

- سأراك غدًا؟

- بكل تأكيد.



خلت سماء المدينة من النجوم. كانت هالتها مشرقة للغاية لدرجة أنها تُنير السماء، وليس العكس. وبدلًا من رؤية «كوكَبة القيثارة»، أقصى ما يمكن رؤيته هي طائرة تقترب بخطورة من البيوت.

كيف بُحْتُ له بهذه الأسرار؟

لم أعد مجرد صورة، لكنني كُنتُ صورة تحمل بين طياتها صورة أخرى. صورة فتاة. مِلتُ بأذني على جذع الشجرة. طلبتُ من راهب المعبد عدم إزالة الخيوط الحمراء. وافق دون معرفة قصتي.

- غريبة حقًّا!

هذا كل ما قاله. كُنتُ أمرُّ بالمكان بين الحين والآخر، وأجلس تحت الشجرة. مع مرور الوقت، بهتت الخيوط وسقطت من على الأغصان، باستثناء خيطين.

- غريبة حقًّا!

كرَّر الراهب الجُملة بنغمة الصوت ذاتها، وعندما سقط آخر خيطين قال:

- إنها الحياة.

ما زالت شجرة الصنوبر الملتوية موجودة هناك. قضيتُ هذه الليلة تحتها رافعًا ياقتي لأعلى. لم يهمني تساقط شوكها على رأسي. بل على العكس، شعرتُ براحة في الجلوس ليلًا شريدًا هكذا، أصابعي مُتجمِّدة من شدة البرد، أنتظر الخلاص. ربما ينتظرني والديَّ، ينتظران صوت خطوات قدميَّ في الردهة، ربما يشعران بالقلق ويسألان: «أين هو الآن؟»، بل ربما يصل الأمر بهما أن يرفعا سماعة التليفون، ويتصلا برقم طوارئ الشرطة، لكنهما يشعران فجأة بالخجل، فيضعان سماعة التليفون مرَّة أخرى؛ لأنه كيف يتمُّ الإبلاغ عن شبحٍ؟ كيف تشرح اختفاء شخص مُختفٍ بالفعل؟ كيف يعتبرونني شخصًا مفقودًا، رغم أنني مفقود منذ مدة طويلة؟ ومع ذلك، لم أتمنَّ بمجرد بزوغ فجر الصباح سوى شيء واحد فقط؛ أن يبحثا عني ويعثرا عليَّ. أن يُمسكا بي من كتفيّ، ويضرباني على وجهي، ويسألاني: «كيف وصلنا إلى مرحلة أن نفتقد بعضنا بعضًا إلى هذا الحد؟». ثم يأخذاني بين ذراعيهما ويقولا لي: «دعنا نبدأ من جديد».



من خلال سقوط أشعَّة الشمس، استنتجت أن الساعة كانت بعد الثامنة بقليل. انتقلت الغيوم غربًا بين عشية وضحاها. حينها فقط أدركتُ أنني نسيتُ مظلتي في المقهى. كانت الدليل على ما حدث البارحة. لو لم أنسها هناك، لساورني الشك في أن كل ما حدث كان حلمًا. لكنني كُنتُ أعلم أن الشعور بالجفاف في فمي جاء من كثرة الحكي، وأن رائحة شعري الكريهة سببها الدخان الكثيف. تعلَّق كل منهما بالآخر مثلما تعلَّقت به. عندما نهضتُ ولمست قدمايَ الأرض الرطبة، خطر ببالي: «ماذا لو قفز اليوم أمام القطار؟». كُنتُ على يقين أنه سيجرني معه، على القضبان، إلى الموت. سلكتُ طريقي، أمام عينيَّ خطوط كرافتته.

- صباح الخير.

مرَّ بجواري.

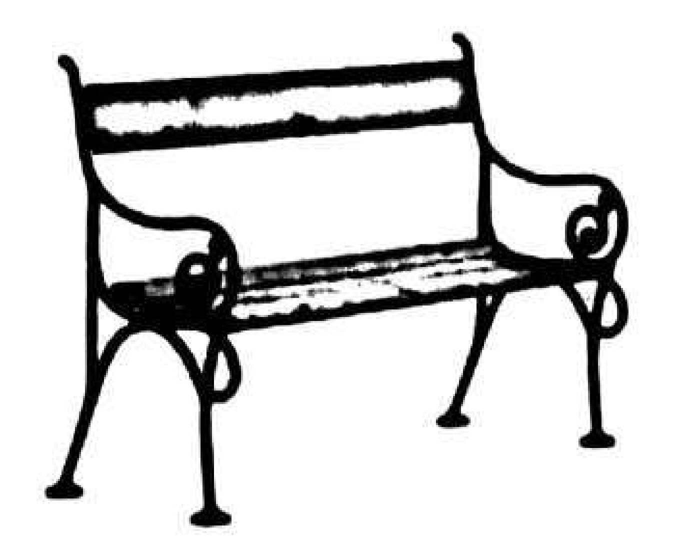
- ألم تنم جيِّدًا؟

تبعته. خطواتنا في انسجام تام. كان يتوقَّف من حين لآخر. بحث عن شيء ما. وجده. واصل السير والسيجارة في طرف فمه مُبطئًا من سرعته. توقَّف مرَّة أخرى. واصل السير ببطء شديد لدرجة أننا في مرحلةٍ ما لم نكن نمشي، لكننا كنا نتسكَّع وسط أناس يجرون. في زجاج نافذة أحد المتاجر، رأيتُ هيئتنا، تسقط من إيقاع العالم. تحدَّث لي من فوق كتفي:

- دائمًا ما يكون الضوء أكثر وضوحًا بعد المطر. ها هي الحديقة. لقد وصلنا إلى دكَّتنا. من الجميل أن نعود إلى هنا مرَّة أخرى.

مدَّ ساقيه.

76



- هل تعتقد بوجود حياة بعد الموت؟...

خرج السؤال منه بعجلة وتوتّر.

- ...أعني «يوكيكو». سألت نفسي ليلة أمس وأنا مُستلقٍ في السرير إن كانت قد بُعثت من جديد. دعنا نقل في المكسيك. سوف يكون عمرها الآن سنتين أو ثلاث سنوات. تتحدث الإسبانية. تتعلم بسرعة. لا تكاد تقول لها كلمة إلا وتُرددها بعدك مباشرةً. لديها أخوان: «خورخي» و«فرناندو». يمكنك رؤيتها وهي تلعب. يحرص أخواها الأكبر في السن على ألا تبتلع أختهما أي أجزاء من طوب البناء. هما أيضًا بُعثا من جديد. أقصد فكرة أن تكون «يوكيكو»، بكل ما لديها من معرفة، في منزل في ولاية «بويبلا»، داخل غرفة، في جسد فتاة تدعى «إيزابيلا». فكرة أن تعرف سريعًا، وهي تضع الطوب فوق بعضه بعضًا، أنها كانت هنا من قبل. إنها تعرف الشمس التي

تسقط عبر الستائر على يديها اللتين تلعبان بهما. إنها تعرف نداء أمها. إنه إعادة التعرُّف إلى الأشياء. بهذه الفكرة في ذهني غلبني النوم. فكرة أننا نُولد من جديد لنعيد التعرُّف إلى شيء ما. فكرة ساحرة، أليس كذلك؟ أنت مثلًا قد تقابلها في يوم من الأيام، في المكسيك أو في أي مكان آخر. في لحظة خَرجَت عن مسار الوقت يلمس كُمها كُمَّك، وسيكون تفويت لحظة كهذه خسارة كبيرة. خسارة، لا يعوِّضها شيء. والأكثر من ذلك: يمكن أن يحدث الأمر نفسه معنا. أعني... اليوم على رصيف القطار، بينما كان حولي الكثير من الناس، سألتُ نفسي إذا كُنتُ سأفتقد أحدهم لو لم يأتِ إلى هناك؟ وإذا ما كان سيفتقدني لو لم آتِ أنا؟ إذا ما كُنَّا جميعًا هنا كي نلمس بعضنا بعضًا؟ عندما تحرَّك القطار أخيرًا، ورأيت صورتي منعكسة في نوافذه وفي الوجوه النائمة وراءها، لم يعد هذا سؤالًا، بل صار إدراكًا. بالتأكيد لكل منَّا صلة بالآخر.



- لو بإمكاني الاختيار...

رسم بطرف حذائه دائرة في الحصى.

- ... سأختار شخصين أود أن أقابلهما مجددًا. هل تسمح لي أن أحكي عنهما؟

تنحنح، حكَّ رأسه.

- شخصان أود أن يلمساني أثناء مرورهما بجواري.

الأول هو أستاذي، الأستاذ «واتانابي». كُنتُ أدعوه ببساطة «المُعلِّم». عندما كان عمري عشر سنوات، صمَّم والديَّ أن آخذ دروسًا في عزف البيانو على أمل أن تكون لديَّ موهبة مدفونة. أرسلاني إلى هناك في الأعلى، إلى المُعلِّم، مرتديًا قميصًا وسروالًا،

حول رقبتي كرافتة سخيفة مثيرة للسخرية، كُنتُ أرتدي في الماضي أشياءً مثل هذه. كانا كلهما أمل أن أعود لهما عبقريًا. أرسلاني إلى هناك في الأعلى؛ لأن منزل المُعلِّم كان يقع في مكان بعيد فوق تل، وكان يتعين الصعود في طريق غير ممهد عبر غابة كثيفة للوصول إليه. كان المُعلِّم يعيش هناك، فوق المدينة وضبابها، مع زوجته المُصابة بمرض في الرئة. قال سُكان المدينة في الأسفل إن الهواء النقي مفيد لها. كان منزلًا كبيرًا. عندما تدخله، تشعر بأنه سيبتلعك. كان الضوء ينفذ إليه، وفقًا لتوقيت اليوم، تارة عبر هذه النافذة، وتارة عبر نافذة أخرى. كان الضوء يغمر بيت المُعلِّم في كل الأوقات.

لكن كان هناك شيء آخر. رائحة حامضة بعض الشيء، مثل رائحة المستشفى. أتذكر الموقف. قال المُعلِّم ضاحكًا:

- *هكذا تكون الرائحة عندما يحتضر الإنسان.*

أشار إلى الباب الذي كان نصفه مفتوحًا.

- *زوجتي هناك، تستلقي في فراش الموت.*

قالها بضحكة مدوية. اقشعرَّ بدني. واصل الضحك:

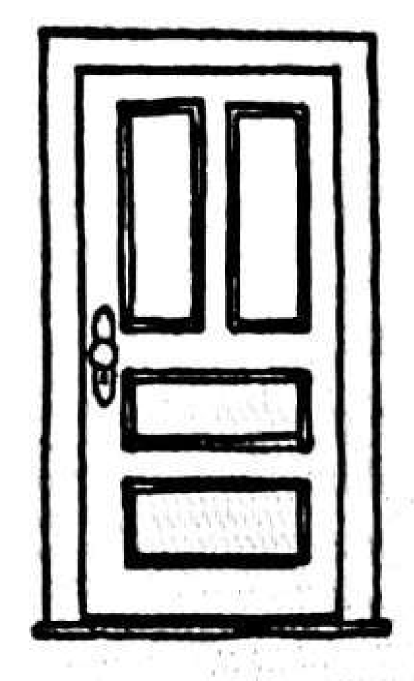
- *الوقت ثمين. الآن دعنا نَرَ ما يمكنك عزفه.*

عزفت صعودًا وهبوطًا على السلم الموسيقي بعشوائية وفتور. قال

المُعلِّم مثبِّتًا نظره على يديَّ:

- ما هذا؟ أنت تعزف كما لو أنه لا حياة بداخلك! حتى الميت لديه شعور أكثر منك!

ضحك مرَّة أخرى. قُلتُ لنفسي: «رجل بلا قلب. مخلوق من حجر. كيف يستطيع الضحك، بينما زوجته تحتضر هناك. يتحدث عن المشاعر، وليس لديه ذرة منها». قلتها لنفسي وأنا أشعر تجاهه باحتقار طبيعي، بديهي، لا شك فيه.



ذات مرَّة، رنَّ جرس الباب. جرى المُعلِّم باتجاه مدخل المنزل، بينما ضربتُ، وأنا جالس على البيانو، ذبابة فماتت. كُنتُ على وشك دهسها بدءًا بالساقين، بينما عاد فجأة ورائي، وأطلق صرخة تحمل ألمًا شديدًا، فظننته أُصيب إصابة بالغة. أسقطني من على المقعد، ثم أنزل غطاء البيانو بعنف، وصاح:

- *أيها الصغير الوقح، كيف تقتل حيوانًا بريئًا في منزلي؟!*

وقفتُ مُتيبِّسًا كالعصا. كُنتُ مذعورًا بسبب وجهه الذي بدا يستشيط غضباً. تزايد شعوري بالغضب تجاهه، بينما كان لا يزال يصرخ، ويسير جيئة وذهابًا، ويعطيني مواعظ بسبب شيء كهذا. كان يلهث. استغللت توقُّفه للحظة، وقلتُ له بشفتين ترتجفان من شدة الغضب:

- أنت الشخص الذي يضحك وزوجته تسعل هناك في الداخل.

صمتٌ مُخيفٌ. تسمرَّ مكانه فجأة أثناء حركته. نظر إليَّ أخيرًا، بعدما ظل هكذا لفترة مرَّت عليَّ كالدهر. تحرَّك أخيرًا بعدما ظلَّ مُتسمِّرًا في مكانه. تحرَّك خطوة باتجاهي. توقَّف. قال بهدوء، بهدوء شديد:

- هذا بالضبط هو السبب في أنك لن تصبح عازف بيانو. أنت لا تسمع أي شيء. ليس لديك أُذُنان. أنت لا تسمع إلا ما هو مسموع فوق السطح، أمَّا ما في الأعماق فلا تسمعه. اجمع أشياءك. الحصة انتهت. أخبر والديك أنك أقل تلميذ موهبةً رأيته في حياتي. محاولة تعليمك ما هي إلا مضيعة للوقت. من لا يسمع في الضحكة سوى الضحك فهو أصم، بل أصمُّ من الأصم. أنا أضحك من أجلها. هل تسمعني؟

ضحك مجددًا.

- أضحك لأنني أعرف أنها تحب ضحكتي. أضع فيها حزني. هل تسمعني؟

ضحك مرَّة أخرى.

- أريدها أن تعرف أنني حزين؛ لأنها سترحل. أضع فيها امتنانًا. هل تسمعني؟

لم يتوقف عن الضحك.

- أضع فيها كل مشاعري. هي تعرف ذلك. إنها تسمع ذلك. ضحكتي سترافقها.

سقط على الأرض من كثرة الضحك. ذهبتُ إليه، لكنني لم أعد غاضبًا منه إطلاقًا. رأيته يبكي. يفيض خداه بالدموع. كان يبكي ويضحك في اللحظة نفسها.



- كان المُعلِّم على حق. لن أصبح عازف بيانو. ومع ذلك، بقيتُ لمدة عام تلميذًا له. معظم الحصص قضيتُها أستمع إلى عزفه؛ «موتسارت»، «باخ»، «شومان»، «شوبان». كان عليَّ خلال هذه الفترة أيضًا أن أصف ما يعزفه، وأن أفسر ما وراء الموسيقى. طوَّر ذلك لديَّ، كما قال، أذنًا حساسة مُرهفة المشاعر. كانت «المشاعر» كلمته المفضلة. استخدمها تقريبًا في كل جُملة قالها.

قبل موت زوجته بوقت قصير، والتي أدركتُ من صوت تأوُّهها أن حالتها سيئة، طلبت منه أن يعزف لي موسيقى الفالس، لكن قبل أن يبدأ العزف مباشرةً، صدر من الغرفة الواقعة خلف الباب نصف المفتوح سُعال حاد رهيب، حاد إلى درجة جعلته تقريبًا سعالًا غير آدمي. وضع المُعلِّم ذو الكتفين الهزيلتين أصابعه على مفاتيح البيانو،

وبدأ في العزف ببطء على إيقاع السُّعال. لم يسبقه. عزف معه. عزف بإيقاع سُعال زوجته نفسه. للأسف لا يوجد تسجيل لهذا العزف، على الرغم من أنني لم أكن أعلم إمكانية تسجيل عزف كهذا. بعد أن انتهى، قال:

- لو أن هناك شيئًا عليك تعلُّمه، فهو أمر واحد فقط؛ ألَّا تخجل؛ ألَّا تخجل من أن تكون إنسانًا ذا مشاعر. مهما كان الأمر، اشعر به بعمق، من قلبك. اشعر به بعمق أكثر قليلًا، اشعر به من أجلك. اشعر به من أجل الآخرين. ثم دعه يذهب.

لم أرَ زوجته إلا في الجنازة. كانت موضوعة في تابوت مُغطَّى بزنبق عطر، رأسها إلى أعلى، ثوب أبيض. كان واقفًا أمامها. لا يضحك ولا يبكي. في الصف الأخير همَسَ أحدهم:

- رجل بلا قلب. مخلوق من حجر.

لكنني كُنتُ أعرفه أفضل منهم؛ قرأت في تعبيرات وجهه المُتيبِّسة - التي لا حركة فيها سوى تنفسه - كيف كان يستمع إلى صمته الداخلي، وكيف اتحد صمته مع صمت زوجته الراحلة. كان يبدو كما لو أنه يستمع إليها، إلى خطوتها المُبتعِدة بهدوء.



- هل رأيتُ المُعلِّم بعد ذلك؟

كتمتُ الرعشة في صوتي.

- نعم، قمتُ بزيارته عدَّة مرَّات. بالتأكيد شعر والديَّ بخيبة أمل؛ لأنه لم يعلمني سوى الاستماع. شعرا أنه خدعهما في موهبتي المدفونة، وظلا لسنوات نادمين على إرسالي إليه. كانا يريان أنه دمَّر كل ما هو موسيقي بداخلي إلى الأبد. تمسَّكا برأيهما. لم يشعرا بالارتياح إلى حد ما إلا عندما توفي بعد موت زوجته بفترة قصيرة؛ لأن حينها تمكَّنا أخيرًا من دفن أملهما.

ما زال منزله موجودًا فوق التل. ذهبتُ ذات مرَّة مع «فومي» إلى هناك. تمكَّنَّا، عبر النوافذ المُثبَّت عليها ألواح خشبية، من التعرُّف إلى

البيانو، والنوتة الموسيقية الموضوعة فوقه والتي يُغطيها التراب. كان باب غرفة زوجته مفتوحًا على مصراعيه، لكن لم نرَ عبر شقوق الألواح الخشبية سوى سرير صغير. جلسنا على واحدة من درجات السُلَّم المؤدية إلى الحديقة، وظللنا لفترة طويلة نستمع إلى صوت الريح أثناء هبوبها عبر الأشجار. قالت «فومي»:

- *إنني أسمع عزفه.*

أشارت إلى فروع الأشجار المُقوَّسة. وجَّهتْ إصبعها تجاه السماء وقالت:

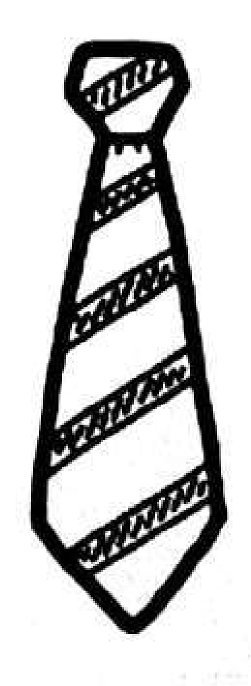
- *أسمعهم جميعًا، أولئك الذين يعزفون في السماء.*

على أي حال، السبب الذي يجعلني أودُّ مقابلة المُعلِّم مرَّة أخرى هو أنني أريد أن أعترف له بأنني تلميذ سيئ. أريد أن أقول له: «أنا آسف. آسف لأنك أضعت وقتك معي».

رسم بطرف حذائه في الحصى دائرة، غمس فيها قدميه، ثم سحبها منها. فكَّ ربطة الكرافتة قائلًا:

- وإلا لن أستطيع التنفس.

81



- عندما أفكِّر في الأمر مليًّا...

تردَّد.

- ... في الواقع، أفضِّل أن يكون الموت نهاية. نهاية قاطعة. ألا يتبعه أي شيء. أن يدخل الإنسان بعده في فراغ. لا بشر بعده، لا تاريخ. تحلُّل تام. أو كيف أصف ذلك؟

صار صوته كالورقة المُكرمشة.

- ينبغي أن تعرف أنني لم أخبرك بكل الحقيقة.

أخذ نفسًا بصعوبة.

- عندما سألتني إذا كان لديَّ أطفال. أنا و«فومي» لدينا... كان

لدينا ابن. كان اسمه... اسمه «تسويوشي».

خلع الكرافتة من رقبته، ورماها بانفعال على ظهر الدِّكَّة، تنفس بحُرِّيَّة أكبر، ثم واصل حديثه بصوت يشبه الورقة المُكرمشة التي تُفتح بعناية، ويُمسح عليها كي تعود مفرودة كما كانت:

- «تسويوشي». القوي. نادرًا ما نتحدَّث عنه. وإن فعلنا، فإن «فومي» هي من تتحدث عنه، ليس أنا. تتلوَّى كالقطة على الأريكة، تدفس وجهها في وسادة، وتتحدث بداخلها. تقول دائمًا الشيء نفسه:

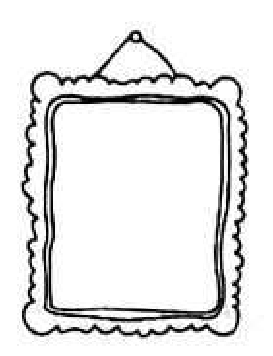
- هل تتذكَّر؟ لقد كُنتُ أسمِّيه «الصغير المضيء». كانت ابتسامته مشرقة جدًّا، هل تتذكَّر أيضًا كنزته الزرقاء التي حكتها له؟ هل تتذكَّر كيف فككتها غرزة غرزة؟ هل تتذكر الأرنب الدمية الصغير عند مقدمة سريره؟ خدوده الصغيرة الحمراء وهو نائم. هل تتذكَّر هذا الشبه؟

كانت تُكرِّر دائمًا الشيء نفسه. كانت تتحدث عن أشياء لا أستطيع تذكُّرها، عن فقاعات الصابون و«الهندباء البرية». الشيء الوحيد الذي أتذكَّره هو الإحراج، صدمة كبيرة، إنه إحراج اللامبالي عندما يُقال له:

- ابنك مُعاق. لن يكون أبدًا مثل الآخرين.

شعور، لا، لاشعور:

- لقد اختلط عليكم الأمر. هذا الطفل ليس طفلي، إنه طفل شخص آخر. هذا الطفل غلطة أنكر أن يكون لي علاقة بها.



- جَرَتْ «فومي» نحوي، وقالت:

- لديَّ أخبار سارَّة!

- أجمل ما في العمل...

- ... العودة إلى المنزل.

سحبتني من ذراعي عبر الردهة إلى غرفة المعيشة. منزلنا، هي من فرشته. سارت، بعد أن اشتريناه مباشرةً، عبر الغرف وأخذت المقاسات.

- سنضع الأريكة هنا، التليفزيون هناك، كُرات الثلج وعلب الموسيقى على الخزانة، دمية راقصة الباليه على الطاولة الجانبية. سنعلّقِ على هذا الجدار صورة المرأة العارية ذات القدمين المدفونتين في الرمال، وعلى الجدار الآخر صورة البحَّار ذي الهالات السوداء حول عينيه.

منزلنا. كل الأثاث والصور والأشياء الأخرى الموجودة به. وقبل كل ذلك كُتب «فومي». تقول لي كل عام: «نحن بحاجة إلى رفٍّ جديدٍ».

سحبتني نحوها على الأريكة، وقالت:

- خمِّن.

رددتُ ردًّا غبيًّا:

- *بالتأكيد كان هناك عرض على الكرنب والفلفل اليوم.*

ضحكتْ. وضعتْ يدي على بطنها.

- *أها، عرفت! عرض على الفراولة والخوخ!*

اهتزَّ بطنها من شدة الضحك. سمعتُ بداخله سعادة، أملًا، بعض الخوف، ثم عادت السعادة مرَّة أخرى.

- ششش.

في النهاية صمتُّ. قالت:

- ستوقظه.

بدأتْ تهمس:

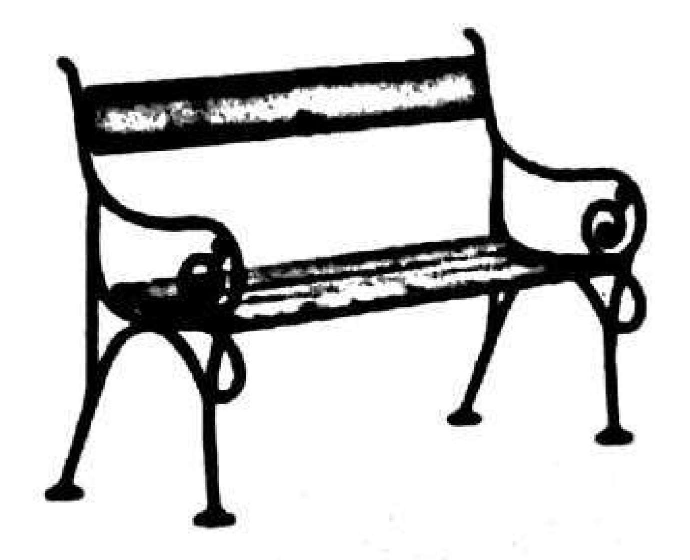
- قريبًا سنصبح عائلة.

كانت كلمة ناعمة، ذابت في فمي.

- عائلة.

كرَّرتها وذُبتُ معها:

- ع - ا - ئ - ل - ة.



- كان بداخلي صورة للطفل الذي لم يكن اكتمل تكوينه ولم يُولد بعد، كان لا يزال ينمو بيننا دون أن يكون له اسم. بداخلي صورة لرجل سيأتي إلى العالم، يكبر فيه، وسيجعله أفضل بطريقةٍ ما. كانت صورة نمطية، نمطية في تفاصيلها المُميزة. طفلي، طفلنا، سيقدر على فعل ذلك دون شك. ستصدُق توقعاتي، بل إنه ربما يتجاوزها، إلى ما أبعد من قدراته، إلى ما أبعد من صورته الموجودة بداخلي. في كلتا الحالتين، سيستكمل ما بدأته وما بدأه آبائي من قبلي. حفظتُ هذه الصورة له في رأسي لمدة تسعة أشهر، مثلما حملته «فومي» في بطنها بالضبط. حتى «كاي» الصغيرة لم تنل من إيماني به.

قبل الولادة بأيام قليلة، وفي وقت متأخر من الليل، سمعتُ «فومي» تتلمّس طريقها في المنزل. وجدتها في غرفة الأطفال أمام الخزانة، بطنها منتفخة، حولها ملابس أطفال، طاقيات وسترات وجوارب

ملونة.

اقتربتُ منها.

- ألا تستطيعين النوم؟

- لا.

التفتت بعيدًا. ضوء القمر على ظهرها.

- لقد حلمت.

قالتها كما لو أنها لا تزال تَحلم.

- لقد حلمتُ ب» كاي» الصغيرة.

- من « كاي» الصغيرة؟

- إنها الفتاة ذات الوحمة الحمراء. قيل إن وجهها مقسوم نصفين؛ وحمة حمراء من جبينها حتى عنقها، حمراء كالنار. تحدَّث الناس عنها في الخفاء. ظلَّ والداها، اللذان كانا يدركان جيدًا ما يُقال عنها، يخفيانها طوال النهار. لم يأخذاها معهما إلى الخارج إلا بحلول الظلام. قيل إن والدها كان يحملها على كتفيه ويريها الشوارع التي كنَّا نلعب فيها. والدتها تدندن وهي تمشي بجوارهما. تحدَّث الناس عنهم بصوت منخفض. قيل إن ثلاثتهم يتنزهون ليلًا، ويتفادون أضواء الشوارع.

إذا أتى أحد باتجاههم، يلاذون بالفرار أو يديرون رؤوسهم باتجاه أي جدار أو يجرون بعيدًا عنه مُطأطئين رؤوسهم. عندما كُنَّا جيرانهم، كان عمري حينها سبعة أو ثمانية أعوام، كُنتُ أمرُّ كثيرًا بمنزلهم. خلف نوافذه ستائر مغلقة، كانت تتطاير أحيانًا. خُيِّل إليَّ أن «كاي» الصغيرة تلوِّح لي من ورائها. سألت نفسي: «كم هي وحيدة؟» تمنيت لو أن لديَّ الشجاعة لألوِّح لها أيضًا. أمرٌ غريب أن أحلم بها بعد مرور كل هذه السنوات. لم أفكر بها منذ فترة طويلة. في الحلم كانت هي مَن تسألني: «كم أنتِ وحيدة؟» كُنتُ أرد عليها: «للغاية. من دونكِ أنا وحيدة للغاية».

- إنه حلم. مجرد حلم.

جَلَستُ القرفصاء بجانب «فومي» على الأرض الباردة، وطبَّقتُ إحدى السترات المُبعثرة حولها، لم تكن أكبر من يدي.

- أليس صحيحًا...؟

صارت «فومي» يقظة فجأة.

- ...هل سنحب طفلنا حتى لو كان...؟

- ما هذا الهراء؟!

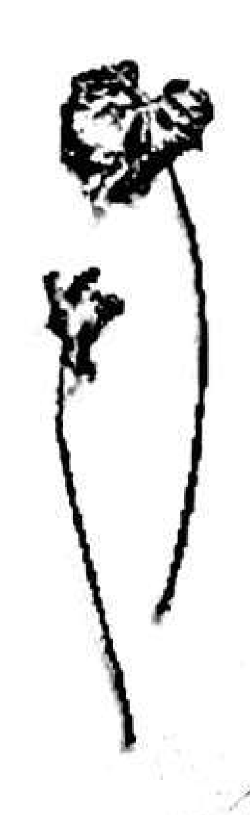
لم أدعها تُكمِل الجُملة.

قالت بينما كنا مُستلقين على السرير:

- إنه صبي، أخبرني الطبيب أنه صبي.

قلتُ لها وأنا شبه نائم:

- سنسميه «تسويوشي».



- لم أكن موجودًا أثناء الولادة التي قيل لنا إنها ستكون بسيطة. اشتريتُ في طريقي إلى المستشفى زهورًا. اختلطت رائحتها الرقيقة في أنفي مع الرائحة الحامضية التي كُنتُ أعرفها من منزل المُعلِّم. فكَّرتُ فيه أثناء صعودي السُلَّم، وأنا أدندن، حتى فتحت الباب. فكَّرتُ فيه، وأنا أمرُّ عبر الممرَّات، وبالغُرف والأسِرَّة، وبعدد لا يحصى من اللوحات المكتوب عليها أسماء المرضى، والتي قرأتُ أخيرًا على إحداها «فومي أوهارا». دخلت الغرفة، وشعرت حينها أن حياتي ستأخذ بدايةً من تلك اللحظة مُنعطفًا حاسمًا. كان شعور المُنتصر. بضربة واحدة تحوَّل إلى شعور المهزوم.

- لا يريدون إحضاره لي.

كانت هذه أول جملة قالتها «فومي» بعد دخولي.

- لا أعرف لماذا. لكنهم لا يريدون إحضاره لي. هناك شيء ما ليس على ما يُرام. لا أعرف لماذا.

قبضتْ على يدي.

- «تيتسو»، أرجوك. اجعلهم يُحضرونه لي. حتى لو ليس لديه عينان أو فم. لا يهم. لا بد أن أراه.

ذبلت الزهور بطريقة ما، ماتت بطريقة ما. شيء ما بداخلي صار قاسياً. حررتُ يدي من قبضة «فومي»، فسقطت يدها على غطاء السرير.

- ماذا تقولين؟ كل شيء على ما يُرام. في رأسي صورة له. هل تسمعين؟ في رأسي آلاف الصور له.

صرختُ:

- آلاف! هل تسمعين؟ آلاف! نلعب البيسبول معًا، أنا و«تسويوشي»، هو الضارب، وأنا المُمسك بالكرة. تحيكين له زيًّا أسود وبرتقاليًّا، يُشبه زي «چاينتز». يحب التاريخ.. لا، الجغرافيا. أشتري له كُرة أرضية مُصغرة، ونسافر بأصابعنا حول العالم.

سنتعارك، مزحًا بالطبع. نتعارك مثل الأفلام التي نشاهدها ليلًا معًا، بينما ستكونين نائمة. إنه أقوى منّي. لديه قبضة قوية. يضربني بها في معدتي، فأقول: «سيصبح رجلًا قويًّا». سيدرس الطب.. لا. تكنولوجيا المعلومات.. لا. الاقتصاد. هو أفضل زملائه، وأنا نخور به. لا أصرّح بذلك، لكنني نخور به. أنكر ذلك، لكنني نخور به للغاية، لدرجة أنني أنكر ذلك. هكذا أنخر به؛ أتصرف كما لو أن هذا ليس شيئًا مهمًا؛ أنخر بأنه ليس أفضل زملائه وحسب، بل وأنه أفضل ابن على الإطلاق، أفضل رجل قابلته في حياتي.

الطبيب. حليق الذقن.

عينان صغيرتان وراء نظارة سميكة.

- ليس هناك شك. لقد تحققنا من الأمر. ابنكما مُعاق، كما أن لديه خللًا في القلب. هذا الخلل لا يُمكن علاجه. هذا شيء لا يُمكن علاجه. عليكما أن تفهما الأمر. هذا الشيء مُزمن. سيستمر. لا يمكنكما التخلّص منه عبر عملية جراحية. السيد والسيدة «أوهارا»، هل تفهمانني؟ من المهم أن تفهما. ابنكما لن يكون مثل الآخرين.

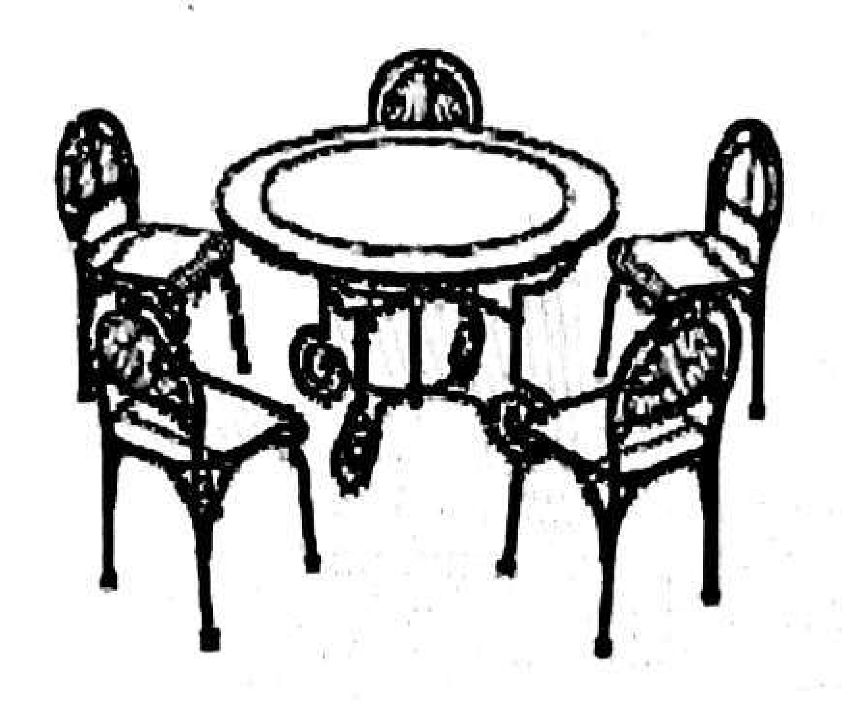
لم أفهم كلمة مما قاله. عندما سألني إن كُنتُ مُستعدًّا لرؤية الطفل، حرّكتُ رأسي نافيًا، وخرجتُ دون أن أقول وداعًا. أعتقد أنني شعرتُ بالخوف من أن يكون شبهي.



- بعدها بأسبوع، عادا إلى المنزل. أقصد «فومي» و«تسويوشي». لم أحسب نفسي واحدًا منهما. كلمة «عائلة» التي ذبت فيها من قبل، صارت كتلة صلبة في فمي. مضغتها، خنقتني. طعمها أشعرني بالغثيان. وقفتُ في الردهة، يدي على فمي، ولم أستطع أن أحمل نفسي على الذهاب إلى غرفة الأطفال.

لم يكن «تسويوشي» يصرخ. كانت الصورة المحفوظة في رأسي صورة طفل يصرخ. صورة أم تؤرجحه يمينًا ويسارًا حتى يهدأ. صورتي وأنا أنظر إليهما بابتسامة خفيفة، أطبطب على ظهره وعلى ذراعها، وأقول له: «لا تبكِ». لذلك لم أتدخل في الأمر. سمح لي الصمت بذلك. كان منزلنا في تلك الأيام ساكنًا. بدت كل الأصوات

مكتومة، يخنقها الصمت. أمر يكاد يُحتمل. اشتقت لضجة مدوية تصم الآذان، لانغلاق باب بقوة، لتحطُّم جدار زجاجي، لبعض الضوضاء التي تُعوِّض صراخ الطفل الذي تخيَّلته. دفعني الاشتياق بعيدًا. استيقظتُ أبكر من اللازم، غادرت المنزل أبكر من اللازم، وجلست إلى مكتبي أبكر من اللازم. صرير الكرسي الدَّوَّار، صوت الضرب على الآلة الكاتبة. عملتُ ساعات إضافية يعملها موظفان. كدت أموت من كثرة العمل. كُنتُ أذهب بعد نهاية اليوم إلى «كاريوكي بار»، أغني، والميكروفون ملاصق لفمي، أغاني الحِداد والجمال. أخرج مُترنِّحًا. أمرُّ بالنواصي الأكثر صخبًا. كُنتُ متعلقًا بشخص لم يُولد من الأساس. وهو الأمر الذي لم يتغير رغم كل ما فعلته.



- أما «فومي» فكانت عكسي تمامًا!

أشرقتْ. راقبت كيف صارت كل يوم أجمل من خلال إشراقها. هذا البريق الخاص في عيني الأم، عندما تحني إلى سرير طفلها، مفتونة تمامًا بكل حركاته، حتى لو حركة بسيطة للغاية تكاد تكون غير ملحوظة. قالت:

- *انظر، بدأ يمسك الأشياء. انظر، إنه يبتسم. انظر، عيناه تشبه عينيك. ألا تظن ذلك؟*

تقول له:

- *عينا بابا.*

ولأنني لم أرد عليها، قالت:

- *لديك عينا بابا.*

شعرتُ بالغيرة وأنا أقف في الردهة. حسدتها على قدرتها على اعتبار هذا الطفل الساكن، الساكن للغاية، طفلنا، خلافًا لأي منطق، خلافًا لأي تفكير بشري سليم، حسدتها على تقبُّله كما هو، وعدم ذكر الخلل الذي يعانيه بأي كلمة. بل والأكثر من ذلك عدم إدراكها أي خلل فيه. بالتأكيد كانت تعرف أن هناك خطأ ما. قُلتُ لنفسي: «بالتأكيد هي تتظاهر وحسب. نعم، إنها بالتأكيد تخادع نفسها». لقد أخبرتُ زملائي في الشركة أن ابننا وُلد بصحة جيِّدة. عشر أصابع يد، وعشر أصابع قدم. هنؤوني. تهليل وتصفيق حار. أتذكر صوت الأيدي التي لم تتوقف عن التصفيق، وأتذكَّر أنني شعرتُ لمدة ثلاثين ثانية بشيء يُشبه السعادة.

جاءت عائلتها وعائلتي لزيارتنا. والدا «فومي» ووالديَّ. نظرة مُتعارف عليها إلى غرفة الأطفال، تبعها حديث أثناء تناول الشاي والبسكويت عن زيادة الأسعار، وعن الإعصار الاستوائي في الجنوب، وعن العلاقة الغرامية لمُمثِّل مع مُغنية. كانت محادثة مصطنعة، توقَّفت مرارًا وتكرارًا، لم تستمر إلا بفضل المجهود الذي بُذل لتفادي توجيه دفَّة الحديث إلى «تسويوشي» بقدر الإمكان.

خرجتُ إلى الحديقة لأدخِّن سيجارة. رطوبة خانقة، هناك عاصفة رعدية في الطريق. تبعتني أمي. سمعتها ورائي تتمخّط في منديل. قالت:

- ابني المسكين.

كانت تقصدني.

- الإنسان منّا لا يعرف كيف تحدُث مثل هذه الأشياء. إنها عائلة «ماتسوموتو». ربما أخفت عنّا «أوكادا» الخاطبة سرًّا ما. كان علينا أن نتحرّى الدقّة أكثر من ذلك. المشكلة ليست فينا بكل تأكيد.

كانت تهمس. تركتها تتحدَّث. سمعتُ في همسها مُواساة:

- المشكلة في «فومي». المشكلة فيها دون شك. إنها غير مهذبة مثلما كانت حين قابلناها للمرّة الأولى، كان بإمكاننا اكتشاف ذلك حينها.

- كفى هذا الحديث.

قلتها بصوت منخفض:

- كفى.



- هل من الممكن أن تحمِله؟

- رمته «فومي» على ذراعي.

- لا بد أن أتحقَّق إذا كان الماء...

قالتها وهي في طريقها بالفعل إلى المطبخ. كُنتُ وحدي مع «تسويوشي»، للمرَّة الأولى والأخيرة. فاجأني وزنه وحرارة جسده. في مُخيِّلتي صورة طفل خفيف جسده بارد كشيء لا يمكنك الإمساك به، كالنسيم. يكاد يكون هنا، ثم يختفي. كان يحدِّق في وجهي رافعًا قبضتيه لأعلى. مسكت رأسه. شعر حريري. أنف مُسطَّح. فم مفتوح. صرختُ فيه:

- أنت! اصرخ... ألا تستطيع الصراخ بعض الشيء من أجلي؟ الأطفال يفعلون ذلك. يصرخون طوال اليوم. صراخهم يُفقدنا أعصابنا. أمَّا أنت... لماذا لا تصرخ؟

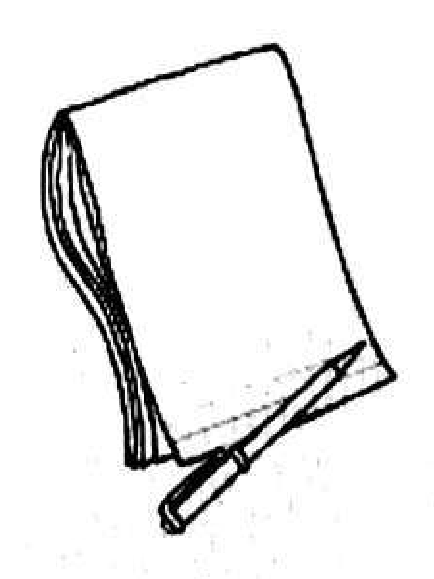
قرصته في خدَّيه. في البداية قرصة قوية، ثم أقوى، قرصة قوية للغاية لدرجة أن أصابعي آلمتني. كانت صرخته تُشبه حشرجة التنفس، أنزلته من على ذراعي مذعورًا. حشرجة التنفس هذه لا تصدُر من طفل رضيع، لا، لا تصدُر سوى من رجل مُسنّ. خَرَجتُ بسرعة. كُنتُ بحاجة إلى هواء. عندما عادت «فومي»، كُنتُ بالفعل في الخارج تحت شجرة «القيقب»، أشعِل سيجارة. اليوم أقول لنفسي: «يا ليتني كُنتُ بقيتُ للحظة أخرى وانتظرته حتى يبتسم. لكنتُ أدركتُ حينها أن إعاقته لا تُمثّل شيئًا مقارنةً بإعاقتي». ذلك الشيء الذي صار قاسيًا بداخلي منعني من الإحساس بنعومة خدَّيه من أعماق قلبي. من بيننا نحن الاثنين، كُنتُ أنا مَن يعاني من خلل أخطر في القلب.

لم تلمُني «فومي». كانت تُدرك مشاعري غير المُعلنة، لكنها كانت تخشى في الوقت ذاته من أن أصرّح بها. كانت تُسمي كل مَن زارونا لتهنئتنا «المُعزّين». دعابة ممزوجة بالألم. كانوا يأتون ليُعبّروا عن أسفهم؛ «خسارة أنه ليس سليمًا». «يا له من سوء حظ!».

«ألم تكن هناك إمكانية لتفادي ذلك؟». كانت «فومي» على ما يبدو تشعر بالخوف من أن تسمعني أعبِّر عن الأسف نفسه، الأسف عديم الفائدة. قالت:

- *يتحدثون كما لو كان ميتًا.*

نَفَس عميق ساخط. بدلًا من أن تغضب منّي، استشاطت غضباً من الزوّار.



- ذات يوم، ذهبنا بناءً على اقتراح «فومي» إلى «بيت الشمس»، وهو بيت يلتقي فيه الآباء والأمهات أمثالنا ممَن لديهم أطفال أمثال «تسويوشي»، ليتبادلوا الخبرات. ذهبنا للانضمام إليهم. فجأة خطرت ببالي فكرة مُزعجة؛ فكرة الانضمام لمجموعة كهذه. أعددتُ ابتسامة، رسمتها على وجهي، ارتديتها، كانت لوحةً مكتوبًا عليها: «ممنوع اللمس». حصَّنتُ نفسي خلفها. أثناء تعريفي بنفسي، قُلتُ مبتسمًا:

- *أنا سعيد بوجودي هنا.*

عددتهم، كانوا خمسة أطفال. تسعة آباء وأمهات. لكنَّ هناك شخصًا غائبًا؛ إنه أنا. على الرغم من ذلك، تم الترحيب بي:

- *نحن أكثر سعادة بوجودك معنا.*

كان «تسويوشي» أصغرهم سنًّا. كان يبلغ من العُمر خمسة أشهر.

أمَّا الآخرون فكانت أعمارهم ثلاثة، وستة، وعشرة، وستة عشر عامًا. كُنتُ مذهولًا. كان ذا الستة عشر عامًا، والذي يُدعى «يوجي» على ما أعتقد، يرسم صورة. ظلَّ أثناء جلوسه يرفع جسده ويُخفضه بتوتُر، مُمسكًا بقلم ألوان شمع أحمر في يده، نظر إلينا خِلسة، ثم انحنى إلى الورقة مرَّة أخرى. بينما أعلنت «ميكي» ذات السنوات العشر والجالسة بجواره، بحماس شديد أنها تريد بناء بيوت عندما تكبر. قال والدها بفخر مُمسكًا بها من كتفيها:

- *تقصد مُهندسة معمارية. ابنتي سوف تصبح مُهندسة معمارية.*

قلتُ لنفسي: «يا له من رجل مجنون». ظلَّت ابتسامتي مرسومة على وجهي. زحف ذو الأعوام الثلاثة بين قدميَّ.

- *«تيشان»، تعالَ هنا!*

استدرجته والدته ببطة بلاستيكية. الكل يتحدث في آنٍ واحد، تعثُّر في الألعاب المُتناثرة هنا وهناك. دُمية ذات أطراف مُلتوية فوق دُمية دُب بلا عينين. ضربتها «أكيكو» ذات الأعوام الستة بوحشية.

- عمُّو.

قفزتُ ذعرًا. لكزتني يد حمراء، حمراء كالنار.

إنه «يوجي». كانت لديه صعوبة في التحدُّث. أخرَج كل كلمة من

فمه كما لو كان قد تعلَّمها للتوِّ:

- *لقد رسمت صورة. ها هي. تفضَّل. هذا أنت.*

أمسك الورقة ومدَّها لي تحت أنفي.

رأيت وجهًا ذا عظامٍ بارزة. الفم عبارة عن خط، أطرافه مسحوبة لأسفل. العينان عبارة عن ثُقبين، يخرج منهما شعاعا ضوء. ليس له أُذنان، بل قرنان. وجه شيطان. اعتذر والد «يوجي»:

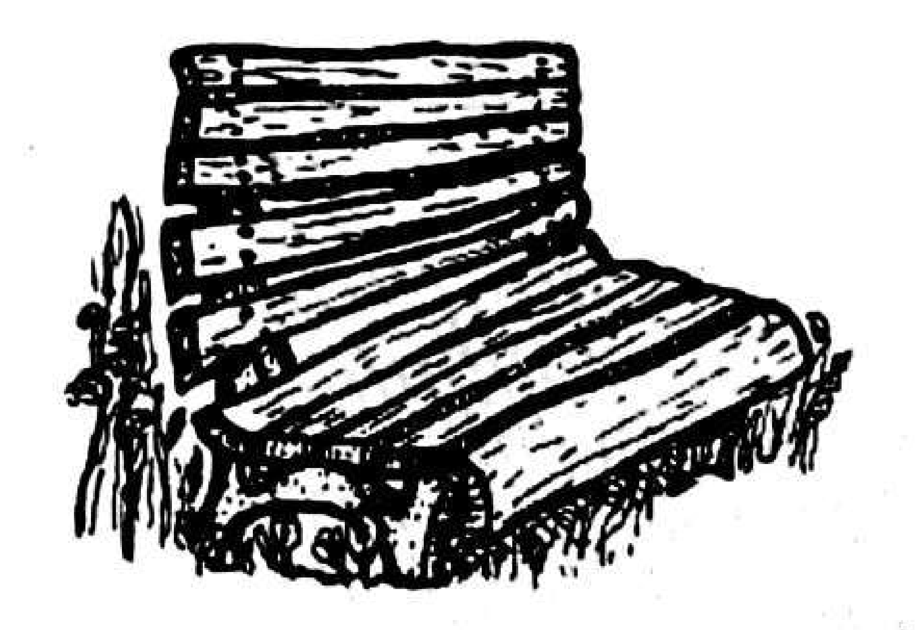
- *لم يرسمك بشكل جيد.*

ثم قال له:

- *تستطيع الرسم أفضل من ذلك. هل ترى؟ ها هو عمُّو يبتسم.*

تنهَّد «يوجي»، وعاد إلى مقعده.

89



تنهَّد هو الآخر.

- غير معقول تصوُّر أن الصبي قد نظر عبر روحي، وأنه ليس الوحيد.

مسح العرق بكُمِّه من على جبهته.

- هذه الحرارة. العشب يموت. من بين كل الفصول، لا أفضِّل الصيف.

سُعال خفيف. كُنَّا في الحديقة. لفت انتباهي أنه لم يضع حقيبته بيننا كالمعتاد. كما لفت انتباهي أن ذلك لم يزعجني.

دكتنا كانت دكة انتظار. انتظرنا معًا شيئًا لن يحدث.

- «تسويوشي»!

- صرخة..

دوّت بين جدران منزلنا الساكن.

هرعتُ إلى غرفة الأطفال. كانت «فومي» هناك. تصرخ. ترفعه فوق سريره. رأسه مُتدلٍّ على أحد الجانبين.

- *إنه لا يتنفس. إنه بارد. تعالَ بسرعة. أسرِع، خُذنا إلى المستشفى.*

رائحة حامضية بعض الشيء. تذكَّرتُ المُعلِّم. شغَّلت المُحرِّك. كانت السيارة صرخة مُتحرِّكة. في المرآة الخلفية، رأيتُ وجه «فومي» ينهار من شِدة الصراخ. «تسويوشي» في الأسفل، على حِجرها. لم أكن أراه.

- *«تيتسو»، من فضلك زوِّد السرعة. يا إلهي. زوِّد السرعة بأقصى ما تستطيع.*

ثم جاءت هذه اللحظة، التي توقَّفتْ فيها فجأة عن الصراخ. وبدلًا من ذلك همست:

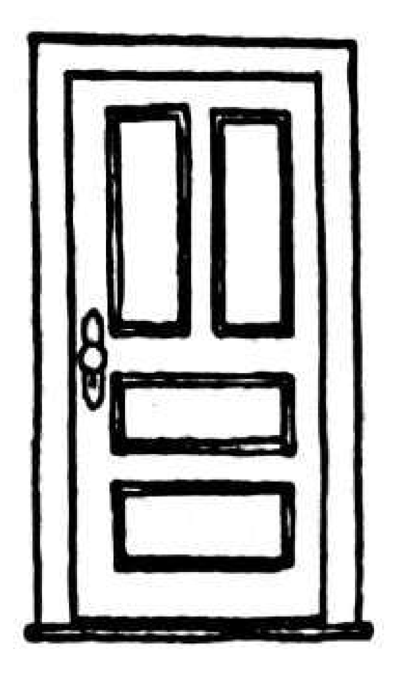
- *إنه لا يتنفس. لقد مات.*

ضوء إشارة المرور الأخضر ينعكس على وجه «فومي».

- قلّلِ السرعة. قلّلها أكثر. من فضلك قُد ببطء. أريد أن أحتفظ به معي لأطول فترة ممكنة.

رَفَعتُ قدمي من على دوّاسة الوقود ووضعتُها على دوّاسة الفرامل. أعترف بأنني شعرتُ مرّة أخرى بهذا الإحراج، بهذه الصدمة الكبيرة. مَن الذي مات؟ أنا لا أعرفه. صدرت من خلفنا أصوات أبواق سيارات. سبَّنا أحدهم. انتابني شعور. لا، لا شعور، إنه لا يقصدني. لستُ الشخص المقصود عندما قال لنا الأطبَّاء:

- نأسف لما حدث، لم يكن بالإمكان فعل أي شيء.



- أعلم أن ذلك ليس له معنى. لكنني أتمنى، أتمنى حقًّا، لوَ أستطيع القول إنني أدركتُ في ذلك اليوم حجم الخسارة التي تكبَّدتها. أدركتُ خسارتي لابني. أدركتُ الخسارة التي تعني أنني لم أنادِه باسمه ولو لمرَّة واحدة، اسمه الذي أعطيته له. «تسويوشي». القوي. هكذا كانت صورته بداخلي. قوي كقبضة يد تضربني في معدتي، كما في الأفلام التي لم أشاهدها معه، لكنني لم أدرك الأشخاص والأشياء التي خسرتها مع خسارته إلا فيما بعد، بعد عدَّة سنوات، وعندما أدركتُ ذلك، كانت الخسارة مُضاعفة. كانت أشبه بندبة. تنبشها ثم تُدرك استحالة علاجها. هذا شيء لا يُمكن علاجه.

عُدنا معًا إلى المنزل.. «خشخيشة أطفال» مُلقاه في الردهة. انحنت «فومي» والتقطتها. نطقتُ بما في رأسي:

- ربما هذا أفضل.

التفتت «فومي» لي محُدِّقة بعينيها و«الخشخيشة» في يدها تصدر صوتًا:

- أفضل لَمن؟ لك؟

بهذا السؤال، تركتني واقفًا وذهبت إلى غرفة الأطفال، وأغلقت الباب خلفها بالترباس. استرقت السمع، لكنني لم أسمع شيئًا سوى دقات الساعة على معصمي. بعد ساعة استسلمتُ، جلستُ أمام التليفزيون، ورفعت الصوت.



- بعد مرور سنوات.

تلوّت «فومي» على الأريكة كالقطة، دفست وجهها في وسادة، وتحدّثت بداخلها. قالت الشيء نفسه:

- هل تتذكر تلك الليلة في شهر أغسطس، عندما قُلتُ لي: «ربما هذا أفضل»؟ لم أشعر في حياتي بعداوة تجاه أي شخص مثل العداوة التي شعرت بها تجاهك حينما قُلتُ ذلك. في بذلتك، كانت كرافتتك متزحزحة من مكانها، وهناك بُقع داكنة عند إبطيك. جلست بجوار سرير «تسويوشي»، وشعرت بالعداوة الأكبر تجاهك. لقد ناضلت لمدة ستة أشهر كي لا أشعر بها؛ ليس عند عودتك إلى المنزل ثملًا، ليس عند شكواك وأنت ثمل من وصول حياتك إلى طريق مسدود.

لكنها سيطرت عليَّ بعد ذلك. في النهاية، صارت العداوة بمثابة الاشتياق التعيس الذي أصل من خلاله إلى «تسويوشي» في العَالَم الآخر. موتٌ لطيف. أردته. ظهر لي في خضم العداوة كصديق سوف يستقبلني بحرارة، يحتويني في قلبه بلُطف. ليلة آمنة. كُنتُ أرغب في العد من واحد لمائة حتى أنام، حتى أنام للأبد. لكن برأيك، ما الذي منعني؟ استمع لما سأقوله جيدًا! لم يمنعني من ذلك سوى فكرة التزامي بالاستيقاظ الساعة السادسة، وإعداد وجبة «البينتو» لك. فكرة سخيفة، أليس كذلك؟ لا تفوق سخافتها فكرة أنك بحاجة لي، لي أنا التي ستقول لك يومًا ما، التي ستقول لك اليوم: «أنا أرى ما بداخلك، وأعرف عجزك. من خلال كل ما بك من عجز، أرى شخصًا يُعاني». هذه الفكرة هي التي أنقذتني. فجأة رأيتُ كيف أنك تذهب إلى العمل وتعود مرَّة أخرى، إلى العمل وتعود مرَّة أخرى. فجأة رأيتك تُدحرج صخرة، وأنا أدحرجها معك. الشيء نفسه. إننا نُدحرج بعضنا بعضًا إلى الأعلى في طريق جبلي شديد الانحدار.



ثلاث كُرات أرز، جمبري مقلي، وسلطة طحالب البحر.

- لو أن «تسويوشي» لا يزال على قيد الحياة، لكان عُمره الآن واحدًا وثلاثين عامًا.. سنٌّ جيِّدة.

فصل عَصَويَّ الطعام عن بعضهما.

- سنٌّ يستطيع فيها الإنسان أن يلقي نظرة على ما مضى، ونظرة على ما هو آتٍ. هل تريد بعضًا منه؟

أومأت.

- تفضَّل، خذ واحدة من كُرات الأرز. هل طعمها جيِّد؟

- نعم. إنها أفضل كُرة أرز أكلتها على الإطلاق.

ضحك، مسح بظهر يده على عينيه ضاحكًا. دمعة غير ملحوظة.

- أتمنى لو أستطيع الجلوس معه هكذا، وأن نأكل معًا وجبة «البينتو» التي أعدتها «فومي». أعني مثلما أجلس معك الآن. ألا توافقني الرأي؟

أشار بعَصَويِّ الطعام مرَّة هنا ومرَّة هناك.

- بطريقة ما، الجميع موجود هنا في الحديقة. الرجل الذي يستند إلى ذراع الشابة، إنه «هاشيموتو». المرأة العجوز التي تتكئ على عُكاز وتعرج خلفهما، إنها زوجته. الذي يمسك بالكتّاب هناك واضعًا قلم رصاص في فمه، إنه «كوماموتو». الجالسة في ظل الشجرة وتنورتها مرفوعة فوق ركبتيها، إنها «يوكيكو». الرجل الذي يجلس على البئر ويُطعِم الحمام، قد يكون المُعلِّم. الجميع هنا. تحت هذه السماء. عليك فقط أن تُفتِّش عنهم.

أردتُ أن أقول له: «لو أن الأمر كذلك، فأود أن أكون ابنك»، لكنني لم أقلها. بدلًا من ذلك، طلبت منه أن يسدي لي معروفًا. بدأتُ حديثي:

- هناك شيء...

- ما هو؟

- هناك شيء يمكنك فعله من أجلي.

- أخبرني به الآن.

- من فضلك أخبر زوجتك الليلة بالحقيقة؛ بأنك فقدت وظيفتك. أنت مدين لها بذلك، بعد كل ما حدث، بعد كل ما لم يحدث.

- أعدك بأنني سأفعل ذلك. وأنت عدني بأنك ستقصُّ شعرك الليلة أيضًا. لم أخبرك بذلك من فترة طويلة، لكنك تبدو مرعبًا بسبب خُصل شعرك هذه.

ضحكت معه.

- حسنًا، اتفقنا.

- لن نتعرف إلى بعضنا بعضًا يوم الإثنين.

- هل ستأتي؟

- نعم، بالتأكيد.

- ثم؟

- بدايةٌ جديدةٌ.



بعد ظهيرة ذلك اليوم، كُنتُ أنا الذي غفوتُ. غفوتُ وحلمتُ أنني في غرفتي. عرق بارد على يديَّ. أستلقي ممددًا على سريري كالجثة. بذلت كل مجهود مُمكن كي أتحرك. ثم سمعتُ صوت أبي:

- *لا يمكننا فعل شيء. لقد مات الصبي.*

أردتُ أن أصرخ:

- *لا، أنا حيٌّ!*

لكن لم يكن لديَّ فم. فوقي مرآة. رأيتُ فيها أن ليس لديَّ فم ولا عينان. عبر عينين لم تكونا لديَّ، رأيتُ وجهي، جدارًا أبيض. صوت أمي:

- *يا خسارة! لم يعثر على وجهه أبدًا.*

في تلك اللحظة فُتحت الستائر. دخل عبر النافذة ضوءٌ ساطع. سقط على الجدار الأبيض، أي سقط عليَّ، وفجأة شاهدتُ في المرآة انهيار الجدار الذي انهارت معه جدران غرفتي الأربعة. مساحة شاسعة من حولي. لمسني شخصٌ ما. جريتُ وراءه. أثناء جريي، استعدتُ في وعينيَّ مرَّة أخرى. حرق على خدِّي. لاحظتُ أنني أبكي. كانت دموعي خيوطًا حمراء تسيل فوقي. صرختُ:

- *لم أنسَ كيف أبكي عليكِ يا عزيزتي «يوكيكو».*

عندما استيقظتُ، لم يكن موجودًا. كرافتته بجانبي، مُتدلِّية على ظهر الدِّكَّة. وضعتها في جيبي وتلمَّستُ نسيجها؛ حرير دافئ. لقد قال: «بداية جديدة». هذه الجُملة أتعبتني. جررتُ جسدي المُتثاقل عبر الحديقة، خرجتُ منها، ومررتُ عبر التقاطع بمحل «فوجيموتو». كان والداي يقفان قلقين عند مدخل باب المنزل.

- ها أنت ذا. حمدًا لله. أردنا...

لكنني كُنتُ مُتعبًا للغاية لأردَّ عليهما بأكثر من جُملة سريعة فاترة:

- لقد عدتُ إلى المنزل.

ردَّا عليَّ في صوتٍ واحد:

- حمدًا لله على سلامتك.



إذًا، هذه الليلة، بيننا اتفاق، التزمت به. مُمسكًا بالمقص في يدي اليُمنى، قصصتُ شعري خُصلة خُصلة إلى أن صارت رأسي خفيفة وباردة. بمجرد أن قصصتُ شعري، تناثر في كل مكان على الأرض، لم يعد جزءًا مِنّي، وقلتُ لنفسي: «بالتأكيد سيشعر مثلي». بمجرد أن يحكي لها، سيسقط عنه عبء الحقيقة، ولن يستطيع أن يلوم نفسه بعد ذلك على أنه أجَّل الأمر كل هذه الفترة الطويلة. سيقف مثلي أمام المرآة، ويشعر أنه غريب ومألوف في الوقت ذاته. سيفكر بي ويقول لنفسه: «الاعتراف بالحقيقة مثل قَصِّ الشعر».

لكنَّ هناك سؤالًا فاق الألفة: ماذا سيحدث بعد ذلك؟ كانت صداقتنا بمثابة أكبر غرفة دخلتها. لقد غطَّيتُ جدرانها بصور قصصنا التي حكيناها لبعض، وفكرة أنني قد أضطر إلى الخروج منها عبر باب

لا أعرف إلى أين سيقودني، وتعريض نفسي للمجهول، هذه الفكرة حاصرتني بخطورة. كُنتُ آمل تقريبًا في أن يؤجل اعترافه، وأن يظهر يوم الإثنين، أن يُلمّح لي دون كلام بأنه فشل. كان أملًا وضيعًا. أخرجته من ذهني. قضيتُ عطلة نهاية الأسبوع بأكملها مُحاولًا حبسه في أحد الأركان. في ليلة الأحد، صار هذا الأمل مُجرد أمنية بسيطة؛ أن تُتاح لي الفرصة مرَّة أخرى كي أخبره أنني أتمنى أن أكون ابنه.



الساعة التاسعة. إنه بالتأكيد هذا الشخص. قميص ذو كُمَّين قصيرين على طراز «هاواي». جاء باتجاهي، وجهٌ استعاد شبابه بغرابة. لا، لقد التبس عليَّ الأمر، لم يكن هو. إنه ذلك الواقف في الخلف. كتفان مُنحنيان إلى الأمام. مشيته معوجَّة كما لو كان يريد تفادي شخصٍ ما. نعم، إنه هو. ثم، لا. مرَّة أخرى، نعم. ثم، لا، ليس هو. لا، التبس عليَّ الأمر مرَّة أخرى. كيف يمكن أن يحدث ذلك؟ من المؤكد حدث له شيءٌ مفاجئ. مُجرد تأخير. حتمًا سيأتي حالًا. شخص واقف عند الشجيرات. هل هو رجل؟ أم امرأة؟ أم طفل؟ ماذا لو كان هو؟ انتظرت. عيون مترصدة. لقد حدث بالتأكيد سوء فهم. أتى وذهب أناس كثيرون للغاية. لم يلفتوا نظري من قبل. هل وقع له مكروه؟ مع كل مرَّة التبس فيها الأمر عليَّ، اختلقتُ سبباً لغيابه،

مثل: صُداع أو وفاة أحد أقاربه من بعيد، ربما أنفلونزا الصيف أو شخص ما بحاجة ماسة إلى مساعدته. انتظرت مُمسكًا بالكرافتة بين السبابة والوسطى إلى أن أصبحت لا أعرف بوضوح مَن الذي أنتظره.

حلَّت الظهيرة. أخرج جميع مَن في الحديقة وجبة «البينتو» الخاصة بهم. جلسوا مُتفرقين في مجموعات صغيرة، أكلوا وشربوا ودردشوا. فكَّرتُ في «فومي»، وتساءلتُ إذا ما كانت قد استيقظت اليوم كعادتها في الساعة السادسة أو إذا ما ظلَّتْ مُستلقية في السرير، وطلبت منه ألا يغادر. هل سَمِعت عنِّي؟ وهل ستأتي إلى هنا لتُخبرني لو حدث له أي مكروه؟ السيدة الواقفة هناك في المقدمة، قد تكون هي. لديَّ شعور أنها تبحث عن شخصٍ ما. كدتُ أصيح: «أنا هنا»، لكنني رأيتُ أنها وجدت ضالتها بالفعل، تشابك ذراعها في ذراع رجل آخر. فجأة شعرت بالخجل؛ لأنني منحت نفسي هذه الأهمية. رَفعت ياقتي وقلتُ: «مَن أنا لأظن أن على «فومي» أن تبحث عنِّي؟ مَن أنا لأظن أن عليها الشعور بالالتزام تجاهي؟» راقبتها وهي تختفي وراء إحدى الأشجار. أثناء سيرهما، وضع الموظف الذي كان معها يده برقَّةٍ على رقبتها.



ها هو الشعور نفسه مرَّةً أخرى. الشعور بأنني نكِرة، بل أقل من النكِرة، الشعور بأنني لا شيء. بأنني لا حول لي ولا قوة. هذا الشعور قيَّدني، قال لي: «الآن، اجرِ!» حاولت، دفعت جسدي جيئةً وذهابًا، لكنني لم أتحرك أبعد من ملليمتر واحد. ارتجفت من شدة المجهود الذي بذلته للوصول إلى هذه المسافة. بعد موت «يوكيكو»، أصابتني الرجفة نفسها، حكَّة مستمرة تحت الجلد، إشارة من الداخل تُذكرني في الخارج أنه على الرغم من كل المساعي التي بذلتها كي أكون طبيعيًّا، وعلى الرغم من كل المعارك التي خضتُها، فإنني مُختلف بطريقةٍ أو بأخرى.

لقد أخفيتها قدر استطاعتي. يجب ألا يرى أحد أنني أخفيها. وعندما لم أستطع إخفاءها، كُنتُ أكثر شخص يضحك عليها بصوت

عالٍ، ويقول: «يا له من أمر مُضحك!». عادةً ما كُنتُ أضع يديَّ في جيوبي، لأنني كُنتُ أرتجف في كل مرَّة ينادي أحدهم اسمي. هل لاحظ أحد أمري؟ هل كشف أحد أمري؟ أنا الذي كُنتُ أتظاهر بأنني لم أرَ أي شيء، كُنتُ أكثر مَن ينتبه كي لا يراه أحد. ومن يكون غير مرئي أكثر ممن يُكيِّف نفسه مع المجتمع؟ تظاهرت واضعًا يديَّ في جيوبي بأنني شخصٌ بلا هوية مُميزة. هذا هو الضغط الذي كُنتُ أقصده. ليست الاختبارات، ليست الدرجات. كان الضغط يكمن في محاولة إخفاء هويتي. النضال من أجل الوصول إلى المصداقية. أول غرفة انعزلت فيها لم تكن غرفتي في منزل والديَّ، بل كانت قبل ذلك بكثير، إنها ملامح وجهي الصماء التي أتخفَّى وراءها. حينما أتت سيرة «يوكيكو»، كان المُعلِّمون يحكون قصتها من حينٍ للآخر لأخذ العبرة منها. في تلك اللحظات، كُنتُ أدفن يديَّ في جيبي أعمق فأعمق، وأذهب إلى الحَمَّام وأنا أصفِّر بهدوء أعصاب. كُنتُ أغلق الباب على نفسي، وأنتظر دقائق حتى تخف الرجفة قليلًا. طرق أحدهم الباب عليَّ:

- *«هيرو»، ماذا تفعل عندك؟*

رددتُ عليه:

- *أنت تعلم ماذا أفعل.*

ضحك ضحكة مكتومة مُبديًا تفهمه:

- آه فهمت.

ثم قال:

- *يا رجل، أنت تحتاج إلى وقت طويل.*

خرجتُ مرسومًا على وجهي ابتسامة عريضة.

تجنَّبت الجلوس في المنزل مع والديَّ على مائدة واحدة وتناول الطعام أمام أعينهما مُمسكًا بملعقة وشوكة ترتجفان. لَم يلفت الأمر انتباههما على الأرجح، إذ إنني قد تعلَّمت بعض الاستراتيجيات لكتم الرجفة تحت جلدي، والإبقاء عليها هناك مُخبأة بعيدًا عن الأعين إلى أن أصير وحدي، وأدعها تخرج إلى السطح فأتنفس الصعداء. كُنتُ آكل في كثير من الأحيان داخل غرفتي. لم يسألني أبي أو أمي عن الأسباب. كانا يقولان:

- *إننا نتفهَّم صعوبات هذه المرحلة العُمرية.*

لو سألاني لما استطعت أن أعطيهما إجابة أفضل من هذه. تفهمهما للمرحلة العُمرية الصعبة من حياتي كان أفضل عُذر يُمكن استغلاله: «اعذراني، لكنني لا أريد الجلوس معكما». «اعذراني، لكنني غير مُهتم بشرح الأسباب». نظرة مرتعشة. من بين كل البشر، كُنتُ أنا أكثر

شخص لا أريده أن يراني.



لكنني رأيتني.

رأيتني. شخصًا غريبًا.

صورة مهزوزة.

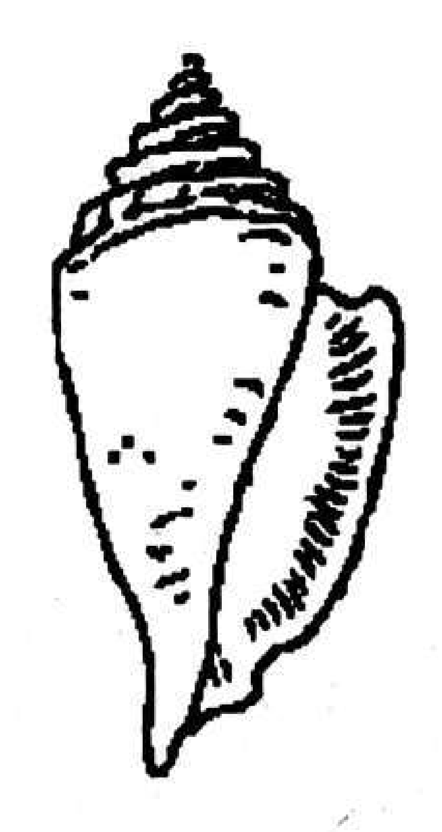
رأيتُ محاولة التحايل على نفسي أمرًا مستحيلًا. قُلتُ لنفسي: «كان من الطبيعي أن أنظر بعيدًا». أكثر شيء طبيعي في العالم أن أتجاهل طلب «يوكيكو» الذي قالته بصوت مكتوم: «من فضلك ساعدني!». أن أواصل السير في اللحظة التي تلتقي فيها نظرتها مع نظرتي وتتشبّث بها، فتدرك فجأة: «إنه لن يساعدني. لا تُنتظر منه أي مساعدة». خيبة الأمل التي شَعرَت بها بعدما انفصلت نظرتها عن نظرتي حينما واصلتُ السير، ثم توقفتُ لاهثًا بعد ناصيتين، وسمعتُ صوت صفعة

خافتة لها وكأن شيئًا ناعمًا للغاية تعرض للطَحْن والسَحْق من شيءٍ خشن للغاية. ومَن لم يكن ليفعل مثلما فعلت، ثم يهرب أسرع؟ مَن لم يكن ليفعل الشيء نفسه؟ هكذا أقنعتُ نفسي، ورأيت كيف أنني صدَّقت نفسي، كُنتُ أريد تصديق نفسي تمامًا، رأيتُ كيف أن تصديق نفسي هدَّأني. هدوء مُضلِّل. «انسَ يوكيكو. لقد نسيتها من قبل». رأيتُ كيف تظاهرتُ بأنني نسيتها. لقد كانت النقطة السوداء على سطح أبيض. لو تغاضيتُ عنها لفترة كافية، فلن تكون موجودة. الواقع مُتغيِّر، مجرد عنصر قابل للاستبدال بمُتغيِّر آخر. تُشكِّله كما تريد كي تشعر بارتياح. هذا ليس جريمة. الجريمة هي أن تعتبر الواقع الذي شكَّلته أكثر واقعية من الواقع، وأن تدافع عنه كما هو، على الرغم من إدراكك أنه غير حقيقي.

يا ليتني بكيتُ ولو مرَّة. راقبتني أثناء عدم البكاء. شد في عضلات فكي. بلعت ريقي. «اكسر شيئًا. بسرعة». ها هي المرآة، حطمتها. ضربتها بقبضتي مرَّة أخرى. ألم مُهدِّئ، غطَّى على الألم الحقيقي، الألم الذي لم يكن موجودًا، الألم الذي تُجبر نفسك على عدم الشعور به. كنست زجاج المرآة المكسور وتخلَّصت منه. أن تعرف، أن تعرف جيِّدًا بفضل ما مررت به أن عدم البكاء بكاء، ومع ذلك لا تبكي. شد في عضلات فكي. بلعتُ ريقي.

كان هناك آخرون مثلي. من السهل التعرُّف إليهم. من الصعب التعرُّف إلى نفسي بينهم. تعرَّفتُ إليهم من مشيتهم الهاربة، تظهر بُقع حمراء على رقابهم عندما تتحدث معهم. مُزَاحهم مُبالغ فيه. يتصنعون أنهم طبيعيون، الأمر الذي يجعلهم في الوقت نفسه مُختلفين. شعرتُ بأنهم مُثيرون للاشمئزاز. كلهم. شعرت بسبب شفافيتهم أنهم هواة يهددوني ويهددون نضالي من أجل الوصول إلى المصداقية. خطأ من جانبهم وسيتطلب الأمر مني بذل مزيد من الجهد للحفاظ على وجهي المُصطنع. ذلك الشيء الذي ربطنا ببعض كان في الوقت نفسه الشيء الذي فصلنا عن بعضنا بعضًا. كلٌ منَّا داخل قوقعته. مع أقل هزة لها، كنَّا ندفس رؤوسنا بداخلها.

98



في عيد ميلادي السابع عشر، اقترح أبي أن نذهب معًا إلى البحر. قال:

- سنذهب اليوم بالسيارة إلى البحر. أنا وأنت فقط. أب وابنه.

كانت هذه طريقته في اقتراح شيء. سمعنا في السيارة أغاني «إينكا» القديمة؛ أغنية «لا يوجد ما هو أجمل من النبيذ والنساء». دندن أبي معها، بينما كُنتُ أنظر من النافذة صامتًا. بالنسبة لي، لم نكن نتحرك من مكاننا. إنها البيوت، وحقول الأرز، والسُّحب التي تتحرك، وليس نحن. القمر شاحب. تحته خط أزرق. يقترب شيئًا فشيئًا. إنه البحر.

سار أبي أمامي، بينما كان قميصه يتطاير كالشراع. مشيتُ وراءه

بطول الشاطئ بخُطى متثاقلة. هدير الأمواج. طائر نورس يُناضل ضد الريح. صخرتان.

- دعنا نرتاح هنا. لم نجلس معًا هكذا منذ وقت طويل.

- إنها المرَّة الأولى.

تنحنُح شخص شعر بالحرج.

- أيًا كان. من الجيد أن نجلس معًا. ينبغي علينا أن نفعل ذلك أكثر. أن نجلس معًا هكذا.

خلع حذاءه وجواربه. دفس رجليه في الرمال، وقال:

- إننا نفعل ذلك نادرًا.

ضَحك. تعرَّفتُ إليه من صوته الرقيق. وددتُ أن أسحبه من كُمِّه، وأن أقول له: «لستُ مُضطرًا لفعل ذلك، أن تُخفي نفسك عنِّي، أن تُخفي حزنك. لست مضطرًا لإخفائه وراء الضحك». تنحنح مرَّةً أخرى، وحفر أصابع قدميه أعمق وأعمق.

- أتعلم؟ أن تصبح بالغًا فهذا أمر ليس سيئًا للغاية. أقصد أن يكون لديك هدف واضح، وأن تبذل قصارى جهدك لتحقيقه. تضعه نُصب عينيك، وتسير نحوه خطوة خطوة. قد تتعثر، لكنك ستقف على

قدميك مرّة أخرى، وفي النهاية سوف تحققه، هدفك، سوف تنظر إلى الوراء، وترى كم كانت مسافة بعيدة التي قطعتها...

آثار قدميه في الرمال.

- ...وستشعر بالسعادة، كل اليأس الذي تسلّل إليك في الطريق سيتلاشى، هل تفهم؟ حسنًا؟

أومأتُ.

خرج السؤال فجأة من فمي:

- هل شعرت من قبل باليأس؟

- مَن؟ أنا؟

توقّف، كانت قدماه حتى الكاحل تحت الرمال.

- لا، من أين أتت إليك هذه الفكرة؟ أنا أتحدث فقط بشكلٍ عام، ما أريد قوله إنه يجب عليك ألا تدع شيئًا يُثنيك عن هدفك.

طبطب على ظهري، من الجيد أننا نتحدث معًا هكذا، نفّض الرمال عن قدميه، وارتدى جواربه وحذاءه.

- دعنا نواصل السير.

قواقع مكسورة. سقطت حجارة في الماء. رأيتُ في الأفق قاربًا. استدار في الاتجاه الآخر، وعاد إلى مرساه.



أمرٌ غريب. لكن إدراك أن أبي كان يُخفي شيئًا هو الآخر، إدراك أن الارتجاف كان يملؤه أيضًا، وأنه كان يكتمه تحت جلده، واساني، على الأقل لبعضٍ من الوقت. كان الأمر ببساطة هكذا، مثلما قاله:

- لا بد أن يكون لك هدف. عليك أن تبذل قصارى جهدك. عليك أن تُحققه. أن تكون سعيدًا يومًا ما. لا يتطلب الأمر سوى قفزة صغيرة. قفزة إلى الجانب الآمن، إلى أولئك الذين لا يُفكرون كثيرًا في مدى الألم الذي يُخلّفِه ليس خيانتهم للآخرين فقط، بل خيانتهم لأنفسهم أيضًا.

أردتُ الذهاب إلى هناك. جريتُ استعدادًا لتلك القفزة، كُنتُ لا أزال أجري. كان بإمكاني القفز، لو لم يسلِّمني عدَّاء التتابع «كوماموتو» عصا التتابع الخاصة بالإخلاص في اللحظة الأخيرة. «اعترف...» هل كان هذا ما صاح به آنذاك؟ «اعترف بأنك مُصاب

بالمرض نفسه». كان ردّي بنعم هو الباب الذي انغلق خلفي. يأس أبي. جاء متأخرًا للغاية. عندما اقتحم غرفتي هائجًا، ورفع يده عليّ، كُنتُ قد أصبحت قبلها بفترة طويلة غير قابل للمس. أنا متأكد أنه رأى ذلك. في الواقع، إنه هو مَن تراجع أمامي وليس العكس. لقد تعمَّد أن يضرب في الهواء.

سماء المساء شاحبة.

بدأت الحديقة تخلو. أضيئت الأنوار حولها. دقيقة أخرى. ربما يأتي الآن بمجرد أن أنهض.

- «هابي»! ابقَ هنا!

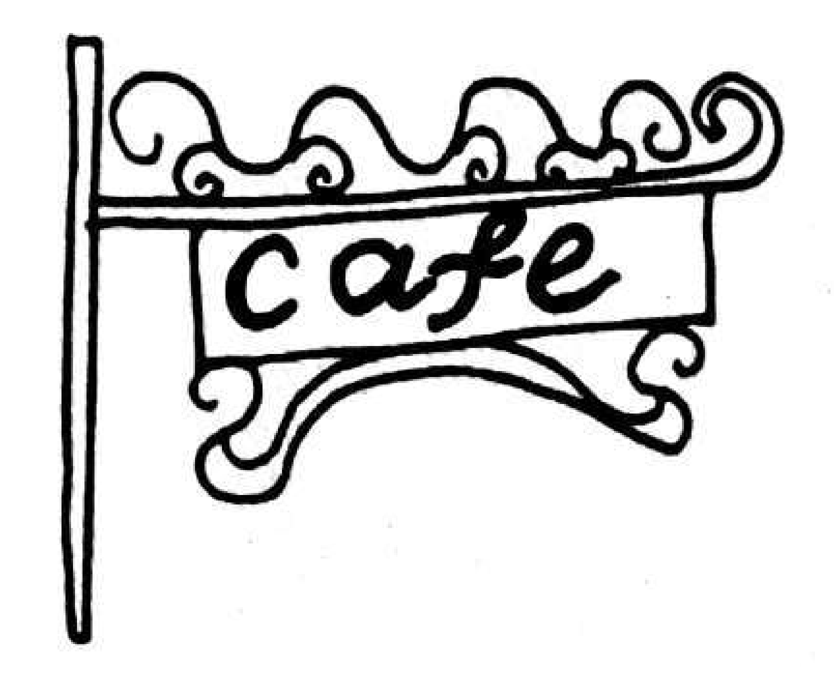
حبل مشدود حول رقبته. أنف كلب دافئ على رقبتي.

- «هابي»! دعك من هذا! «هابي»! تعالَ هنا! «هابي»! كُن مؤدبًا!

لم يطع الكلب صاحبه. ظلَّ يقفز عليَّ مرارًا وتكرارًا، ولعق وجهي. لسانٌ خشن. كان يعوي. دفعته جانبًا ونهضت.

- «هابي»! كفى.

سمعتُ نباحه حتى بعدما غادرت دكَّتنا بفترة طويلة.



مرَّ أسبوع على هذا الحال. في تمام التاسعة أكون هناك. أراه يظهر، ثم أدرك أنه ليس هو. خلَّطت بينه وبين طالب في مدرسة ثانوية، وبين موظَّفة تُدخِّن، وبين ظِل يتمايل. اختلقتُ له أعذارًا، آلام في البطن، زيارة غير متوقعة من صديق قديم، رحلة غير مُخطط لها إلى الجبال. عندما نفدت الأسباب، بدأ موسم الأمطار.

«مايلز تو جو» MILES TO GO

عند الناصية، وجدتُ مظلتي التي نسيتها من قبل. لم تُثبِت لي شيئًا. لم ينادِني صوتًا مألوفًا. لقد بدأت في الواقع أشك إذا ما كنَّا قد التقينا من الأساس. ربما اختلقته، إنه أمر وارد، مثلما اختلقت العديد من الأسباب لغيابه. كانت الكرافتة الدليل الوحيد. تلمَّستها وعرفت أنه موجود. وخز في فروة رأسي. نما شعري مرَّة أخرى. أمَّا في المقهى،

فقد توقَّف الوقت. إنها الموسيقى نفسها.

«.. أن تريد حبًا لا يمكن أن يكون صادقًا..».

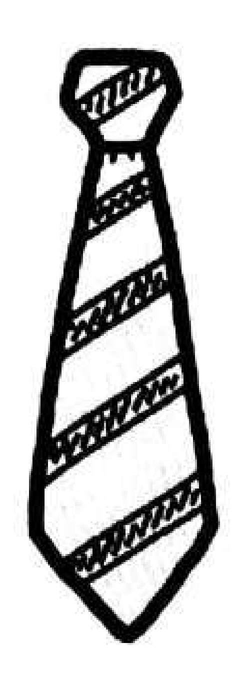
أحيانًا أشعر بالرغبة في افتراش الأرض وترطيبها تمامًا بدموعي. لا، شيءٌ هكذا لا يُمكن اختلاقه، إنه شيء حقيقي. غرقتُ في مقعد الكرسي، وطلبت «كوكاكولا».

- ستأتيك حالًا.

أغلقتُ عينيَّ وحاولت تذكُّر وجهه، إلا أن ملامحه فقدت حِدتها. كما هو الحال مع «يوكيكو» و«كوماموتو»، ما احتفظت به من كلٍ منهما كان تعبير وجه مُعين أكثر منه ملامح وجههما. وجهان تكمن جاذبيتهما في حزنهما. أمَّا بالنسبة له فتعبير الوجه الذي أحتفظ به منه هو التعب الحزين. عندما فتحت عينيَّ، لاحظت أن الموجودين، بما فيهم أنا، غارقون في هذا التعب، وبدينا جميعًا كما لو أننا في انتظار شخصٍ ما. شخص يُحررنا من هذا التعب. إنه جحيمٌ بارد، ثابرنا بداخله. سمعت بين الحين والآخر جُملة: «عليك أن تفعل شيئًا».

استغرق مِنّي الأمر ستة أسابيع إلى أن وجدتُ هذا الشيء، بعد أن حكيت له - ذلك الذي لم يأتِ - كثيرًا من التفاصيل التي لم أذكرها من قبل.

101



كارت العمل الخاص به. لقد حفظته عن ظهر قلب. قررتُ، محتفظًا بعنوانه في رأسي، أن أزوره في منزله، ولم أفكر في أكثر من الذهاب إلى هناك، والضغط على زر الجرس، رنين الجرس، وانتظار صوتًا خلف الباب. إنه أول قرار حقيقي أتخذه منذ قرار الإيماء إليه. اتخذته صباح أمس. استيقظتُ، أمامي شِق الجدار.

«... يا ليتنا مجنونان بما فيه الكفاية لنتصرف بطريقة مختلفة. لنتحرر لمرة واحدة...».

جُملة «فومي». شعرتُ أنها كانت تقصدني أيضًا. ارتديتُ ملابسي بسرعة. مع كل حركة قمتُ بها، اكتسب قراري قوة أكثر. سأنتظر صوتًا من داخل المنزل ثم... لا تُفكِّر كيف سينجح الأمر. سينجح. تسلَّلت إلى الخارج.

كانت الكرافتة في جيب سُترتي. تلمَّستها عند كل ناصية مررتُ بها. لقد دفعتني للسير إلى الأمام. داخل التجمعات البشرية. اشتريتُ تذكرة. لم أنسَ كيف أفعل ذلك. عَبرت ماكينات الدخول، ثم دخلت المترو. عالمه. يده تُمسك كل يوم باليد المتدلية في المترو. كانت وقفتي معوجَّة شيئًا ما، كتفي مُنحني إلى الأمام، أجدِّف ضد التيار. بينما كان الجميع يذهب إلى المدينة، ركبت في الاتجاه الآخر. رأيتُ الأشياء التي كان مُضطرًا لرؤيتها. شاشات المترو. اللافتات. صناديق القمامة التي ستنفجر مَن شِدة امتلائها. نظرتي الغارقة في كل هذه المشاهد الموجودة حولها لم تعد نظرتي وحدي؛ لأنها تداخلت مع نظرات الآخرين. الكثير من الناس موجودون معًا. صَعدتُ إلى القطار. حذاء أبي في كل مكان. كرَّرتُ العنوان بداخلي. مرَّت سبعة أسابيع. مُدة الحِداد. لماذا يخطر ذلك ببالي الآن؟ نزلت من القطار. ها هو الرصيف الذي كان يقف عليه، ويسأل نفسه إذا ما سيفتقده أحد لو لم يأتِ. لم يكن أحدٌ هناك. تباطأتُ في سيري. ماذا ينبغي أن أقول عندما يُفتح الباب؟ هل لم يكن أملي في أن أراه خلف الباب مثل أمل والديّ في البداية، عندما ظنَّا أنني سأخرج وسأقول لهما: «إن كل شيء على ما يُرام»؟ صعدت إلى الباص. انطلقت. وجدت بجانبي على المقعد كتاب نساه أحد. دليل. لكن دليل لمَن؟ نادى عليَّ السائق:

- عليك أن تنزل هنا.

هواء ساخن هبَّ نحوي. لقد وصلتُ. مشيتُ مسافة قصيرة متوترًا، ثم...



زززززززز. صوت حشرات «الزيز». مسكتُ إحداها وأطلقتها مرَّة أخرى. مشيتُ عبر مدينة ميتة، حي ميت. قمصان بيضاء على أحبال الغسيل. كل بيت يُشبه الآخر. حدائق يابسة ذابلة صغيرة للغاية. أشجار نخيل مزروعة في أصيص. نساءٌ ورُضَّع. الأطفال في المدرسة، والرجال في العمل. ها هي الجذور المتشعبة كثيرة العُقد، حولها الأسفلت المُتصدّع. بوابة الحديقة. نظرتُ من فوقها. نافذة مفتوحة. ستارة ترفرف. أُصُص زهور «فومي». قفاز الزرع. رننتُ الجرس. سيُفتح الباب الآن. رننتُ مرَّة أخرى. جاءت من المنزل المُجاور موسيقى بيانو هادئة، قاطعها صوت الأواني والأطباق. ستحل الظهيرة قريبًا. جلستُ على حافة الرصيف، وقلتُ لنفسي: «إذًا هكذا يشعر

الإنسان، عندما يظل الباب موصدًا. هكذا يكون الشعور، عندما تقف في الخارج وتنتظر أي صوت آدمي دون جدوى». لسعتني حرارة الشمس الحارقة. كانت عيناي ترمشان.

- مرحبًا!

صوت امرأة رنّان. كانت تأخذ الشارع صعودًا.

ما زالت عيناي ترمشان، حاولت التعرُّف إلى هيئتها. جاءت باتجاهي. قفزتُ من مكاني.

- السيدة «فومي»؟

- نعم، أنا «فومي»، مَن أنت؟ قلت لي إن اسمك «هيرو تاجوشي»؟ صديق زوجي؟ اعذرني، لم يسبق أن حكى لي...

أخرجتُ الكرافتة.

- أو ربما حكى؟

فَتحتْ بوابة الحديقة، وعَرَضتْ عليَّ الدخول بعد أن خطفت منّي الكرافتة بحركة يد أنانية. صعدتُ السلَّم درجتين مرَّة واحدة. عندما خلعتُ حذائي في المدخل، رأيتُ حذاءه موضوعًا بترتيب. بجانبه حقيبته. على الخُطاف مُعلَّق معطفه. رائحة بخور، رائحة شيء لاذع

إلى حدٍ ما.



تبعتُ «فومي» عبر الردهة إلى غرفة المعيشة، لم تكن هناك خشخيشة على الأرض. كان المنزل هادئًا. بينما كانت في المطبخ تضع مياه الشاي على النار، جلَستُ على الأريكة ساندًا ظهري إلى وسادة، ونظرتُ حولي. منزلهما مطابق لمنزلنا. أمامي التليفزيون. على يساره الخِزانة، فوقها كُرات الثلج وعلب الموسيقى. دُمية راقصة الباليه تدور حول نفسها على الطاولة الجانبية، مُعلَّقة على الجدار صورة المرأة العارية ذات القدمين المدفونتين في الرمال، وكذلك صورة البحَّار الذي يحرس فتاة، وفوقهما دخان مُتصاعد. زهور قماش وردية اللون. بجعة ذات رقبة مقوَّسة. تماثيل صغيرة من الكريستال. طفاية سجائر ممتلئة عن آخرها. كان هناك ثُقب في جوربي، لففت أصابع قدمي كي أخفيه. سجادة ناعمة. فوقها كتب. أكوام مُكدَّسة. الرفوف ممتلئة

عن آخرها. كانا بحاجة إلى رفٍّ جديدٍ.

- هل تريد بعض الحلوى مع الشاي؟

سكبت لنا «فومي» فنجاني شاي.

- لو كُنتُ أعرف أنك ستأتي... لكنني...

ابتسمتْ.

- لم أكن أعرف ذلك. قُلتُ لي إن اسمك «هيرو تاجوشي»؟ لا أعتقد أنه أخبرني عنك. أو ربما فعل، لكنني نسيت؟ أسأل نفسي كثيرًا منذ أن...

تلاشت ابتسامتها.

- أسأل نفسي كثيرًا إذا ما كُنتُ أعرفه حقًّا. يا له من موتٍ مفاجئ. بعده تسأل نفسك عن كل شيء.

قالت وأنا أنهار مع انهيار ابتسامتها:

- نعم، لقد مات. أُصيب في طريق عودته إلى المنزل بسكتة قلبية، في القطار، يوم الجمعة. قبل سبعة أسابيع. أمس دُفن رماده. لو كُنتُ أعرف، لكنتُ أعطيتك على الأقل خبرًا. بالتأكيد أنت... أقصد... الكرافتة. كان يرتديها يوم وفاته. هل هذا ممكن؟ أن تكون آخر

مَن...؟

لم تخفِ وجهها عني. ليس عندما بدأتُ أحكي لها، ليس بينما كُنتُ أحكِي، وليس بعد أن انتهيتُ من الحكي. رأيتُ كيف كانت تبكي، ثم تضحك، تتذكر، ثم تعود بذهنها إلى الحاضر، كيف صار وجهها شاحبًا، ثم احمرَّ، وفي النهاية كانت ببساطة هنا. رأيتُ كيف لم تترك الكرافتة طيلة الوقت، وكيف قبضت عليها بإحكام. كيف ملَّست عليها بأصابعها. كيف استولت عليها. كيف أرادت الانصهار معها تمامًا. لقد اندمجَتْ معها بالفعل.



بعد بُرهة، سألتني «فومي»:

- ما هو الفِعل الأكثر فداحة: حقيقة أنه لم يخبرني عما حدث معه، أم حقيقة أنني ساعدته على إخفائه؟ نعم، ما سمعته صحيح. لقد ساعدته، وأنا على عِلم تام بأنه فقد وظيفته، وأنه لا يستطيع أن يخبرني لشعوره بالخزي، ساعدته على البقاء في هذا الخزي. أردتُ منحه بعض الوقت، الانتظار معه حتى... كان بحاجة إلى شخص ينتظر معه. شخص صبور. كُنتُ أتحرك أحيانًا خطوة كبيرة تجاهه. تحدَّثت معه عن التحرُّر، عن الاستلقاء، عن عدم فعل شيء، وأحيانًا عن شركته، عن مُديره، عن زملائه. فعلت كل هذا لأمهّد له الطريق، كي أنيره له، كي أجعله يفهم أنه ليس مُضطرًا لفعل ذلك. ليس مُضطرًا لإجهاد نفسه هكذا، لكنه ابتعد. اللعبة، التي كانت في البداية

لعبة، خرجت عن السيطرة. أمر مروّع أن تخرج لعبة عن سيطرتك. في تلك اللحظة، يكون بمقدورك افتتاح فصل في مسرحية، يشهد نقطة تحوُّل، ثم لا يحدث أي شيء. تصبح فجأة واحدًا من الجمهور. أمَّا الشخص الآخر فيقف على خشبة المسرح وحيدًا، مونودراما، أضواء المسرح مُسلَّطة على وجهه، بينما أنت تجلس في الصف الأخير، في الظلام، غير قادر على التدخُّل، تُشاهد الحدث الدرامي وهو يخرج عن السيطرة. يُسدل الستار. لم يكن مسموحًا لي من البداية أن أشارك في المسرحية. حتى لو فعلت ذلك من أجله، كان عليَّ أن أعرف أن نهاية لعبة كهذه لن تكون سعيدة.

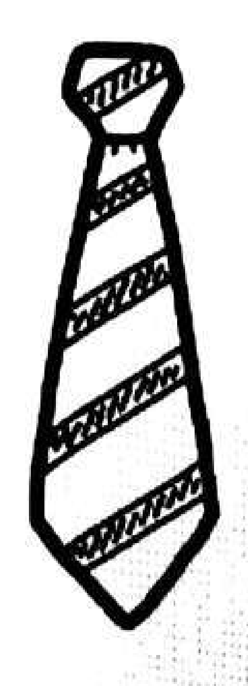
بالطبع، لم أكن في البداية على عِلم بالأمر. كان يُغادر المنزل في موعده، في تمام السابعة والنصف، يعود في المساء متعبًا، ينام أمام التليفزيون. لا شيء غريب. كُنتُ أغطِّيه. سمعته أثناء تغطيته يهمس باسمي في منامه. «فومي». استيقظ فجأة. أقول فجأة؛ لأنه كان يُشبه الميت الموضوع على النعش، والذي ينهض مُتشنِّجًا، لفَّ ذراعيه حولي بطريقة مُفعمة بالحياة، ضمَّني إلى حضنه بشدة كادت تهشمني، ثم قال لي، وأنفاسه في أذني:

- *سامحيني. من فضلكِ، سامحيني.*

كنت ألهث. تركني فجأة، ثم ارتخت ذراعاه مرَّة أخرى، استلقى

ثم عاد إلى سباته الذي صار أعمق من ذي قبل، وفمه نصف مفتوح. قُلتُ لنفسي: «كم أنا حمقاء». اتصلت بشركته في اليوم التالي. عندما وضعت سماعة التليفون، أدركت كامل تداعيات قراراتنا؛ أراد أن يفي بوعده لي؛ وعد حياتنا اليومية، وأنا أردتُ البقاء معه من أجل حياتنا اليومية. في تلك اللحظة الخاطفة، التي وضعتُ فيها سماعة التليفون، أدركتُ الجمال، الجمال المُتناسق، في محاولتنا الوفاء بالقرارات التي اتخذناها.

105



- بطريقةٍ ما، ظل يعمل باجتهاد حتى النهاية. إذا كُنتُ تفهم ما أقصد. لم يحب وظيفته كثيرًا. لم يحب فيها سوى الروتين، والرضا الذي شعر به من تأديتها، وكذلك السلاسة التي تميز بها. حتى لو لم تكن كل الأمور الأخرى تسير على ما يُرام. الرغبة في الإبقاء على هذه السلاسة، رغم الواقع الذي يعيشه، كان حقًّا أصعب عمل قام به.

- الآن فقط أصبح الأمر واضحًا بالنسبة لي.

وضعت «فومي» الكرافتة حول رقبتها.

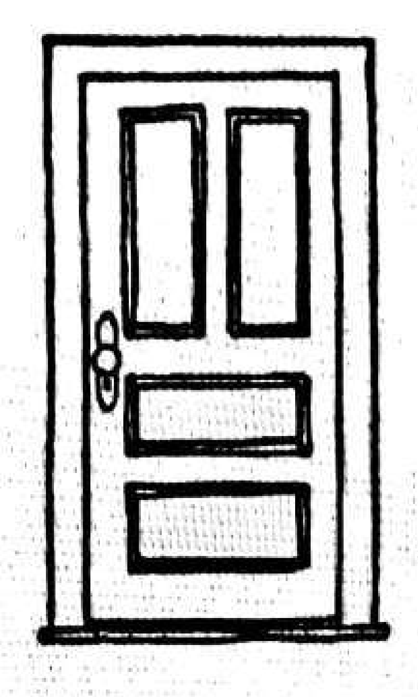
- لكنني أفعل ما كان يفعله. أترى طفاية السجائر الموجودة هناك؟ أعقاب السجائر الكثيرة الموجودة بها؟ لا يهون عليَّ أن أرميها.

الصحيفة المفتوحة هناك. كان يقرؤها داخل فقاعته التي كان يحلق فيها، كان يُقلِّب صفحاتها باستمرار. لا أقدر على التخلُّص منها. عبوة البسكويت الموجودة على الطاولة الجانبية لم تعد مقرمشة. زجاجة البيرة التي كان يشربها مع البسكويت صارت راكدة. عثرت في حوض الحمَّام على شعرة رمادية له. احتفظت بها. فرشاة أسنانه. شعيراتها مُقوَّسة. الفوطة. ماكينة الحلاقة. كل شيء في مكانه. لقد أعطوني كل ما كان معه؛ ساعة يده، حذاءه، محفظته التي كانت تحتوي على ورقة مكتوب فيها: «يقولون إن الإنسان يعيش مرَّة واحدة فقط، فلِمَ إذًا يموت كثيرًا؟». الشيء الوحيد المفقود كان كرافتته. بحثت عنها. هذا ما يسمونه «الأسى». وأعتقد أن الأسى كان أيضًا السبب في سعيه الحثيث أن يكون إنسانًا يؤدي المنتظر منه. من خلال حفاظه على كل شيء كما هو، كان يشعر بالأسى على ما فشل فيه؛ على ابننا، وعلى حبه له. إن الشيء الذي لا يفعله المرء، الشيء الذي يغفله، تكون عواقبه أكثر ألمًا من ذلك الشيء الذي يفعله. ماذا كان سيحدث لو كُنتُ أيقظته من سُباته، لو كُنتُ قُلتُ له بعد اتصالي بالشركة مباشرةً: «أنا لا أبقى معك من أجل حياتنا اليومية، ولكن من أجلك». والأكثر من ذلك، لو لم تتخذ قرارًا اليوم بالقدوم إلى هنا، لو لم تُنفِّذه، لكنت سأستمر غدًا في البحث عن الكرافتة، كُنتُ لأظن أنني لم أكن أعرفه.

- شكرًا.

سحبت «فومي» يدي، وسلَّمت عليَّ.

- شكرًا لأنك قابلته.



- قبل أن تذهب...

أشارت إلى الباب المقابل، على الجانب الآخر من الردهة.

- ... هناك، داخل غرفة الأطفال يوجد ركن تذكاري. سيكون من الرائع لو...

توقَّفتُ.

- ... لو جلست معه مرَّة أخرى.

عبرتُ عتبة الغرفة.

أغلقتُ الباب ورائي.

غرفة صغيرة، ليست أكبر من غرفتي، لا تزيد مساحتها على عشرة

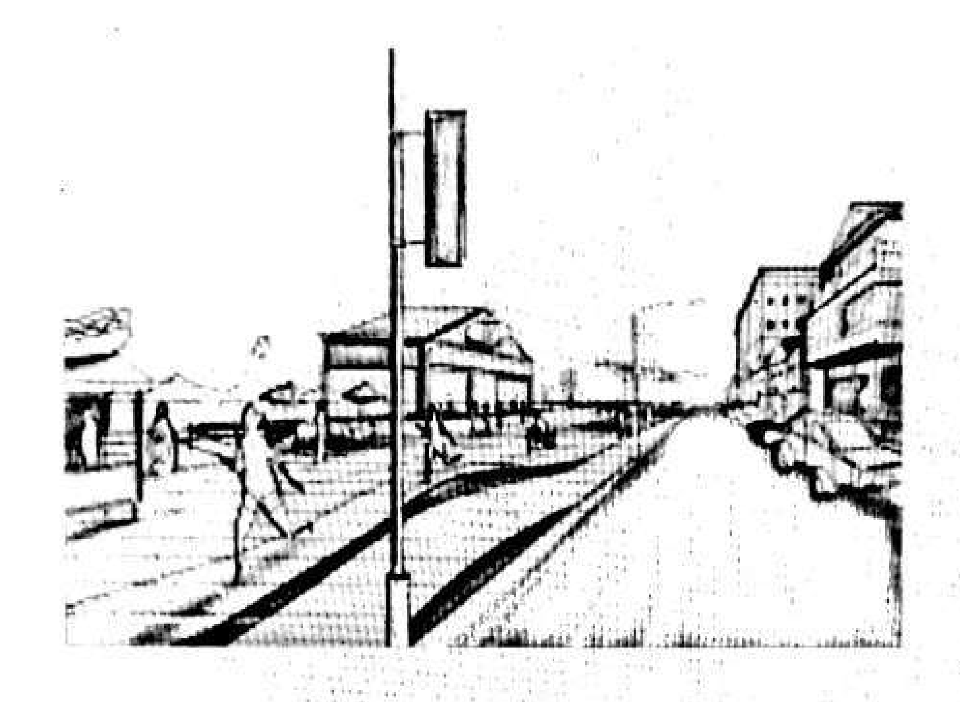
أمتار مربعة. ليس بها أثاث. الركن التذكاري وحسب. أمامه شلتة. جلست عليها. زهور نضرة على اليمين واليسار. علبة «البينتو» الخاصة به، ملفوفة بقطعة قماش زرقاء. صورة لـ«تسويوشي»، وأخرى له. وضعتُ ثلاثة أعواد بخور عند الركن، ضربت الوعاء الذهبي، وضممتُ يديَّ معًا، كي أصلي له. عندما لمست راحتا يديَّ بعضهما بعضًا، شعرت كما لو أنه ليس هناك جدران حولي. استسلمت لشعورٍ ما. انفجرت بالبكاء. لم أبكِ منذ فترة طويلة، لدرجة أن بكائي بدا كبكاء طفل أو شخص عجوز. بكيت دون تحفُّظ أو حذر. بكيت عليه وعلى جميع مَن رحلوا. بكيت على «فومي»، على والديَّ، على نفسي. أكثر مَن بكيت عليهم كانوا نحن، نحن الباقين على قيد الحياة.

- هل تستطيع أن تسمعني؟

سألته وأنا أنتحب.

- لقد كُنتُ على حق. لقد انتهيت من قصيدة رثائي منذ فترة طويلة. أمَّا القصيدة التي لا يزال عليَّ كتابتها هي القصيدة التي لن تنتهِي أبدًا، تخفيف دائم للحبر بالماء، غمس دائم للفرشاة في الحبر، مرور دائم للفرشاة على ورق أبيض، إنها قصيدة حياتي. أريد أن أحاول كتابتها. قريبًا، لا الآن، أريد المحاولة الآن. أول سطر فيها: «سَمَّيتُه كرافتة». أريد أن أكتب فيها: «لقد علَّمني أن أنظر للحياة بعينين

مرهفتي المشاعر».



يُقال إن المُدرِّس خالد لا يموت. حتى عندما تغادر روحه جسده، يظل ما علَّمه لتلاميذه حيًّا في قلوبهم. كان عليَّ التفكير في ذلك وأنا أنزل الشارع في طريق عودتي إلى المنزل. بنظرة باردة، رأيتُ الناس يتمايلون في مشيتهم، ورؤوسهم مُنكبَّة على صدورهم. فجأة توغَّلت نظرتي إلى طبقة أعمق، إلى ما وراء عظامهم وأعضائهم، إلى أبعد من ذلك، إلى مكان لا يُمكن إدراكه، الأمر الذي لم يعد يُسبِّب لي أي خوف، بل إنه انتزع دهشتي. كان الأمر كما لو أن الدموع التي ذرفتها قد أزالت حجابًا باهتًا أمام عينيَّ، فتحوَّلت وراءه جُملة: «لا أستطيع المواصلة بعد الآن» إلى سؤال: «ماذا أستطيع أن أفعل؟».

- «تاجوشي»!

نادى أحدهم باسمي.

- «هيرو تاجوشي»!

في زحام محطة المترو، أمسك بي شخص من كتفي. استدرت نحوه.

- « كوماموتو!»

كيف يمكن أن يحدث ذلك؟ إنني أراه أمامي رأي العين. اليد البيضاء، نعم إنها هي. مدَّها نحوي. صافحته.

- لم أرك منذ فترة طويلة. تعالَ، دعنا نذهب إلى المقهى الموجود هناك.

كان يعرج. كانت هناك طاولة خالية.

- يا له من حظ!

ضَحِك.

- يا إلهي، يا له من حظ! أن نجد طاولة خالية في هذا التوقيت!

كانت تجلس حولنا فتيات يُقهقهن، كنَّ مُنشغلات بالحديث عن مُلمِّع الشفاه الذي قمن بشرائه، وإذا ما كان مناسباً لبشرة وجههن. بضعة موظفين يتحدثون في التليفون. طالب يمضغ علكة، يشدها بأصابعه، ثم يدعها فتطرقع، ينفخها ليصنع فقاعة حتى تنفجر.

- يا له من حظ!

كرَّرها «كوماموتو» مرَّة أخرى.

- تساءلت كثيرًا ماذا سيحدث لو قابلتك صدفة. لقد أعددت جُمل كاملة، في حالة أن... أنا أحمق، أليس كذلك؟ لا أتذكر أي جُملة منهم. كل شيء اختفى.

هنا في الأعلى، نَقَر على جبهته.

سألته:

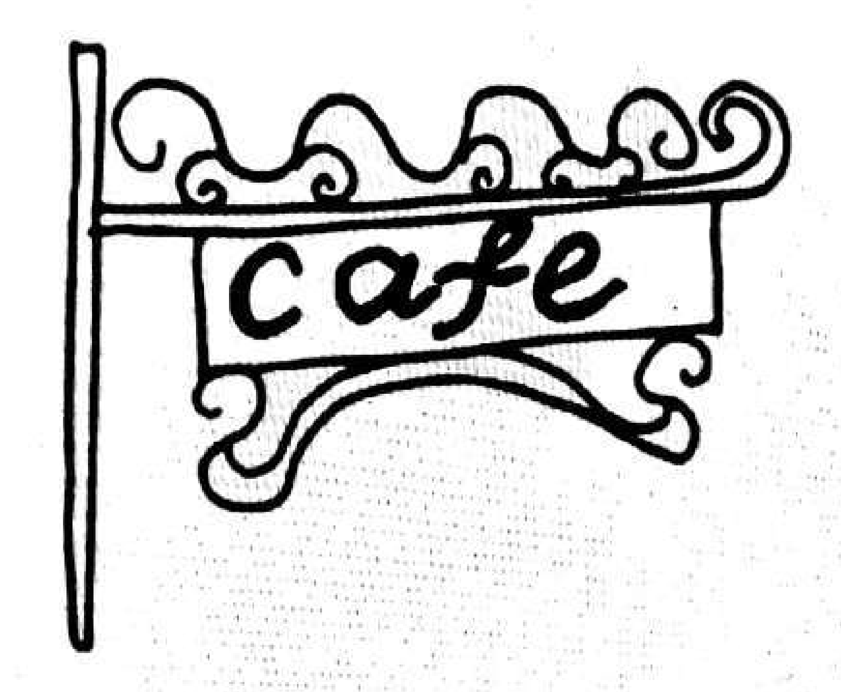
- ماذا حدث؟ ظننت أنك...

- أنني مُت؟ نعم، لقد ظننت ذلك أيضًا. من أعماق قلبي.

لم يضع يده على فمه، ولم يُخفض صوته:

- خمسة أسابيع في غيبوبة وتحت الأجهزة الاصطناعية. استيقظت بعدها. كان استيقاظًا بطيئًا، رمشت بعيني، رفعت البطانية شيئًا ما، بسطتُ أصابعي. عندما عادت الذكريات تُقطّر في رأسي، تمنيتُ أن أنام مرَّة أخرى. لا أحرِّك ساكنًا، فاقدًا الوعي. كُنتُ مُستلقيًا لا أتحرك، بينما تستمر الحياة في الخارج. رأيتُ من نافذتي أضواء المدينة. أنت أيضًا كُنتُ موجودًا في مُخيِّلتي، رأيتك تأتي باتجاهي.

ثقتك بيَّ وببشاشتي. شعرت أنني لا أريد أن أكون مسؤولًا عن إساءة استخدام ثقتك بي. كان شعورًا يُشبه الألم الحارق أسفل الخصر الأيسر.



لقد تغيَّر «كوماموتو». لم تعد حركته مضطربة كما كانت من قبل، بل أصبحت مُتثاقلة. بدا جسده مترهلًا. عندما رأيته، خطرت ببالي جثة تحت الماء، ساقها تيار مياه قوي نحو الشاطئ. قال:

- إنها العقاقير التي أتناولها.

مدَّد ساقه العرجاء.

قلتُ:

- من الجيِّد رؤيتك مجددًا.

أومأ برأسه:

- إنه حقًّا أمر جيِّد.

- هل تعافيت من المرض؟

- لا أعلم. ذلك الحادث، الذي طالبوني أن أعتبره حادثًا، تبعه بعد خروجي من المستشفى بوقت قصير حادثٌ آخر. حادث غاز. كاد بيتنا أن ينفجر. تمَّ نقلي إلى المستشفى. أعطوني هذه الأقراص. نمت مرَّة أخرى، أجبروني على النوم بلُطف. لا أتذكر كل ما حدث بالكامل. داعب شعاع ضوء أنفي. زجاجة ماء. فرع شجرة كرز نبتت براعمه. مُمرضة شعرها ملفوف لأعلى في عُقدة. صورة. تفك مشبك شعرها، فيتدلَّى على ظَهرها في خُصل مموجة ناعمة. مريض يهذي باستمرار. كنَّا نسمِّيه «السَّكران». على الرغم من أنه كان مثلنا جميعًا، لا يشرب سوى الماء والشاي. تحدَّثت معه ذات مرَّة. شرح لي وهو يهذي بأنه يشتاق إلى الاستلقاء ثملًا في ناصية أحد الشوارع، دون ذاكرة، دون ماضٍ، وأن يستمع لخطوات أقدام المارَّة بجواره. قال إن أصوات أحذية المارَّة ستُريحه.

أو «هيروكو» السمينة. كانت تعتقد أنها ستتحول في أي لحظة إلى عَدَم. سألتني:

- *هل تراني؟ هل ترى كيف أتلاشى؟*

لكنني لم أستطع أن أتخيل كيف يمكن أن يتحلل جسد بدين جدًّا كهذا. كانت تسأل:

- أين أصابع قدمي؟ أين قدمي؟ أين ركبتي؟

كانت تتحسَّس ساقيها بذعر، وتصرخ:

- أنا أتلمس الفراغ!!

في النهاية، أصبح الغذاء يُنقل إلى معدتها عبر أنبوب، لأنها كانت مُقتنعة بأنها بلا فم.



- لماذا أحكي لك ذلك؟ أعتقد أن المرض هو التشبُّث بوهمٍ ما. إنه الوحدة التي يشعر بها الإنسان أثناء تشبُّثه به. عندما أقول إنني لا أعرف إذا ما كُنتُ قد تعافيت أم لا، فإنني أريد أن أقول إنني لا أعرف إذا ما كان حدوث ذلك ممكنًا أم لا؛ أن أتعافى تمامًا. لكن، نعم. أشعر منذ ستة أشهر أنني عُدت بحالة جيدة لدرجة أنني بدأت تدريجيًّا أستمتع بفكرة أن ألقاك مرَّة أخرى صدفة، وأن أخبرك بأنني سعيد للغاية لرؤيتك مُجدَّدًا. هناك فضول بداخلي؛ ماذا سيحدث بعد ذلك؟ هذا الفضول رائع. وماذا بعد؟ أستيقظ صباحًا، وأشعر أثناء غسل وجهي بسعادة بسيطة؛ لأن بداخلي هذا الفضول. أزاحت المياه المُفعمة بالحيوية الرمال من عيني. أيقظتني. يبدو الأمر كما لو أن عليَّ أن أتدرَّب أولًا أن أكون مُفعمًا بالحيوية كالمياه.

بالنسبة لوالديّ، فإن الأمر سيئ بكل تأكيد. أدرك ذلك الآن. أمر سيئ بالنسبة لهما أن يريا الوهم الذي رسماه لي مُنهارًا. لا يستطيعان التشبُّث به بعد الآن. وخصوصًا أبي الذي كانت خسارته فادحة. لم يكن يُحب التحدُّث عما حدث لي، وعندما يفعل، يقول:

- *يا ليتك واصلت كتابة القصائد بدلًا من أن تصبح مريضًا.*

كانت الجُملة تخرج منه سريعًا. عيناه تحاولان الهروب. ينظر بعيدًا بينما يستكمل حديثه:

- *يا ليتك كتبت قصيدة طويلة جدًّا جدًّا.*

سمعتُ في حديثه اعتذارًا. أسمعه لأنني أريد سماعه. بذلتُ مجهودًا مُضنيًا كي أسمعه. أنا مدين له بهذا المجهود. المجهود الذي سهَّل عليه الأمر، فلم يضطر لأن يفقد هيبته أمامي. المجهود الذي سهَّل عليَّ الأمر، وجعلني أبدأ صفحة جديدة. وبهذه الطريقة، كان كل منَّا في غرفته، ويومًا ما، مَن يدري، سنلتقي ونجلس معًا في غرفة واحدة تجمعنا، ونفهم حينها أننا كنا دائمًا معًا.

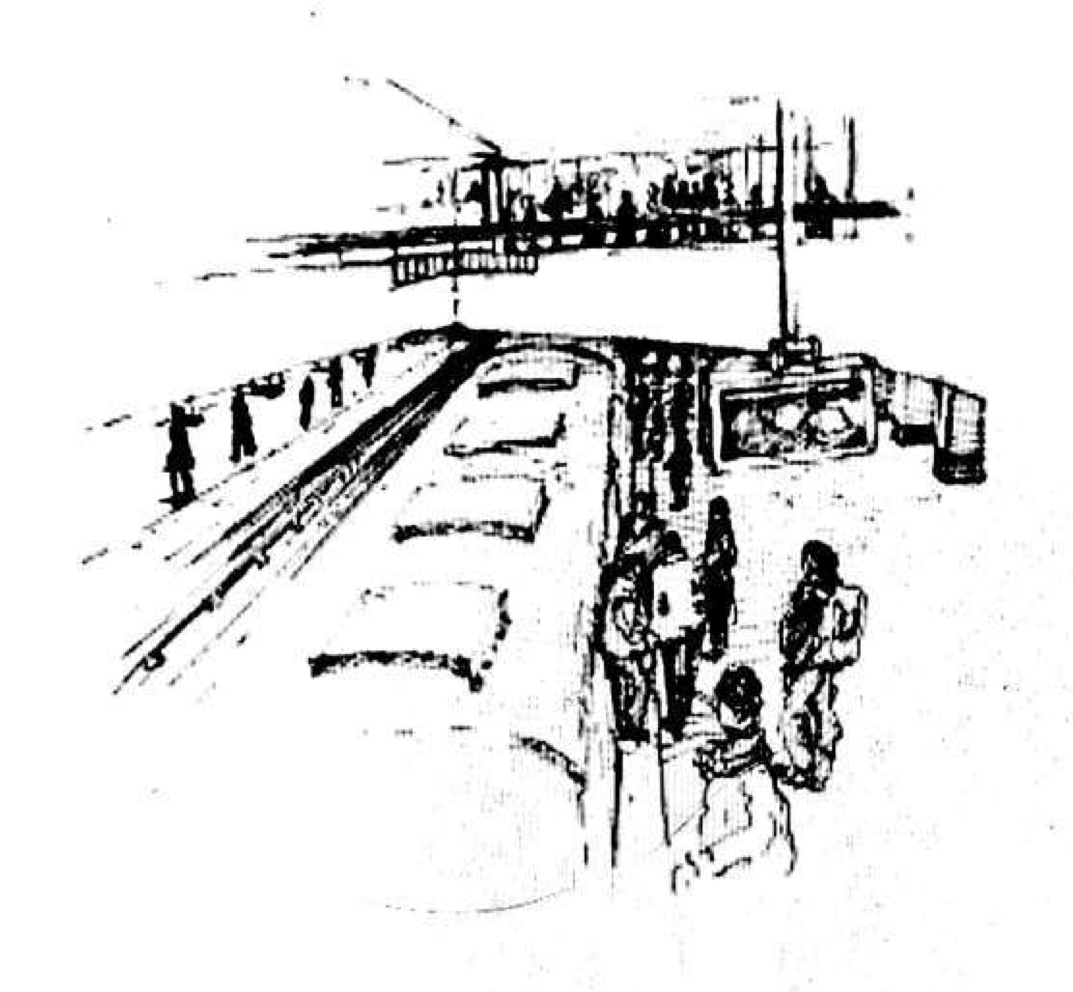


- هل سأواصل الكتابة؟ لا أتخيل أن أتوقَّف عنها. لقد كانت الكلمات في أحلك الليالي حصى مُتوهِجًا، يُجمّع ضوء القمر والنجوم، ثم يعيد إشعاعه مرّة أخرى. من بين هذه الكلمات سطعت كلمة بشكلٍ خاصّ؛ إنها «البساطة». أود الاقتراب منها بخطوة صغيرة، أود أن أتفحصها من جميع الجهات، وألتقطها في يدي في النهاية. تسحرني، فأدرك أن سحرها يكمن في أن توهُجها نابع من داخلها، من معناها النقي. البساطة. أن تكون ببساطة هنا. أن تتحمَّل ببساطة. وكلما تحمَّلت أكثر، كان أسهل بالنسبة لك أن تُدرك كم أنه جميل، ببساطة جميل، أن تكون هنا.

أريد الكتابة مثلما تتوهج هذه الكلمة. أودُّ الكتابة عن أبسط الأشياء. عن جلوسنا الآن مثلًا على هذه الطاولة وجهًا لوجه بعد عامين ونصف العام، عن حديثنا عن أشياء يصمت معظم الناس عنها.

الشاي الأخضر الدافئ الذي نشربه، طعمه حلو. سيحل الفجر قريبًا. سيسقط النهار ومعه الشمس في الليل. نلاحظ أن وقتًا طويلًا قد مرَّ. تُذكِّرني ساقي الممدودة بذلك. أنت لا تلومني. نحن أصدقاء، بل إننا - كما تعلم - توأمان ينظران إلى بعضهما بعضًا فوق كوبين مملوء نصفهما. لقد اشتقت إليك، وأنت اشتقت إليَّ أيضًا. بكل بساطة.

زنَّ مُكيِّف الهواء. الجميع يتحدث ويضحك. الجرسونة تسير جيئة وذهابًا، وعندما تقف، كانت تمسح وجهها المُتعب بمريلتها.



«كوماموتو» لم يتغيَّر.

على الرغم من تثاقُل جسده وترهُّله، كان يجلس أمامي شاعرًا بكل ما تحمله الكلمة من معنى. لقد حافظ على صِدقه. تنبع منه قوة شديدة، قوة إنسان يصعد هاويته وحيدًا تمامًا، يكتشف مدى عمقها. بعد أن يخرج منها، يظل هو الإنسان نفسه، لكنه يصبح سعيدًا لمجرد خروجه منها.

- ماذا تعتقد؟

وضعتُ يدي على الطاولة باسطًا إياها، كي يستطيع رؤية الندوب

الموجودة فيها.

- هل تعتقد أنهم بحاجة لنا؟ أعني أشخاصًا مثلنا حادوا عن الطريق وانعزلوا، أشخاصًا لم يحصلوا على شهادة دراسية أو شهادة تدريب مهني، عاطلين عن العمل، لم يتعلموا سوى شيء واحد فقط، أن الأمر يستحق البقاء على قيد الحياة. تُخيفني فكرة أن يكونوا ليسوا بحاجة إلينا، بعد أن تعلمنا ذلك، ولا نزال نتعلمه. على كل حال، لقد خلَّفت الدنيا أثرها علينا. أصابنا خلل. ماذا لو لم يسامحونا به؟ ماذا لو أن المجتمع ... لا يريد استعادتنا؟ أتجنب التفكير على هذا النطاق الواسع للغاية. عندما أفكر في «المجتمع»، تفيض رأسي بالأفكار. نطاق كبير جدًّا. ما هو؟ أنا لا أراه. ما أراه هو الأفراد. أريد أن أبقى عند هذا النطاق. نطاق صغير. وبما أن الحياة قد خلَّفت أثرها في كل فرد، والكل به خلل، فإن كل فرد بحاجة إلى غيره.

وضع «كوماموتو» يديه بجوار يديَّ.

- عندما عثرتُ عليك للتوِّ مُجدَّدًا...

أطراف أصابعه تلامس أطراف أصابعي.

- ... كانت لحظة. في البداية لم أتعرَّف إليك. لقد أصبحت نحيلًا. لم أتعرَّف إليك إلا عندما تركت اليد المتدلية في عربة المترو المُهتزة،

فتمايلتُ هنا وهناك، تعرَّفت إليك من خلال الطريقة التي ثبتَّ بها قدميك في الأرض للتغلُّب على رجرجة المترو. فُتحت الأبواب. نهضت فوراً. تبعتك. لم أكن أريد أن تضيع عن نظري مرَّة أخرى. كُنتُ تمشي سريعًا إلى أن صرتُ بالفعل على السلَّم المتحرك. لحقتك بالكاد. أدركتُ وأنا أعرج خلفك مدى احتياجي لك. كُنتُ بحاجة لأقول لك: «أنا آسف». بحاجة لأسمع منك: «لا عليك». أنت توقَّفت لوهلة. فتردَّدتُ أنا. تملَّكني شعور بأنه ليس لديَّ حق أن أحتاج إليك لهذه الدرجة، لكنك كُنتَ واقفًا هناك. مددتُ يدي تجاهك، وربما هذه هي إجابتي عن سؤالك، مَد اليد هكذا، مدَّها باتجاه الآخر، هو أشد ما نحتاج إليه.

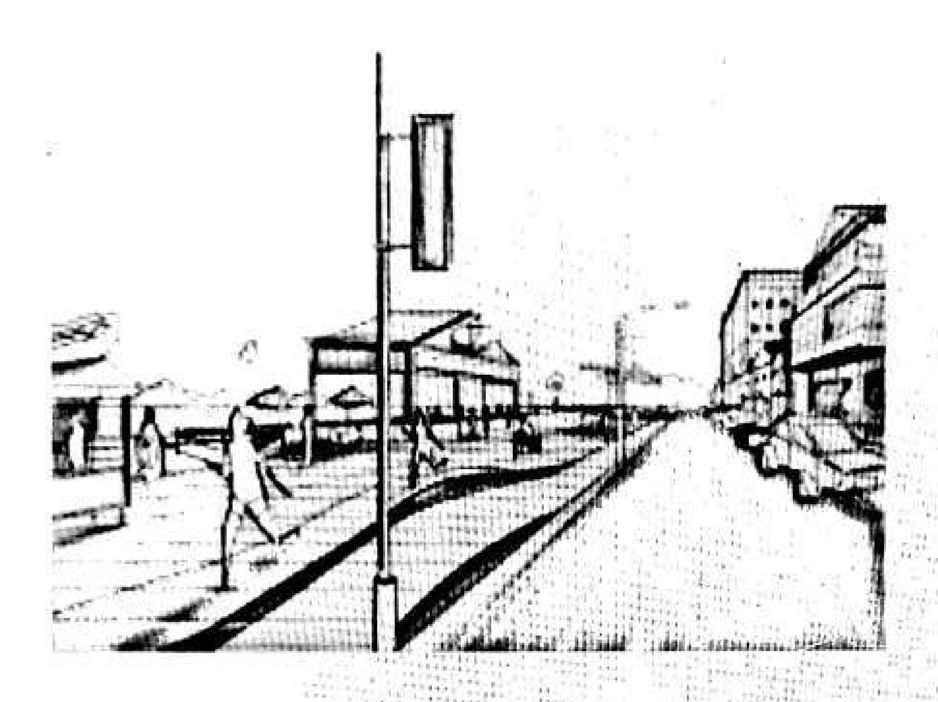
سألته:

- هل لديك أي خطط؟

- ماذا عنك؟

- سأتحرَّر تمامًا.

- أنا أيضًا.



- الشيء الآخر الذي أودُّ سؤالك بشأنه، بماذا صحت آنذاك، مباشرةً قبل أن...؟ بالتأكيد أنت تعرف. كُنتُ في الطريق إليك، ثم صحت بشيء ما. كُنتُ متأكدًا طوال هذه الفترة أنها رسالة لي. شيء كان عليَّ أن أسمعه. كان نداءً لي. ماذا كان؟

- لقد كُنتُ مشوشًا.

- هل نسيته؟

- أعتقد أنه كان لا شيء.

- حقًّا؟

- ما المغزى من تكراره؟

- ربما كي...

- ... أقول لك: إنه كان لا شيء.

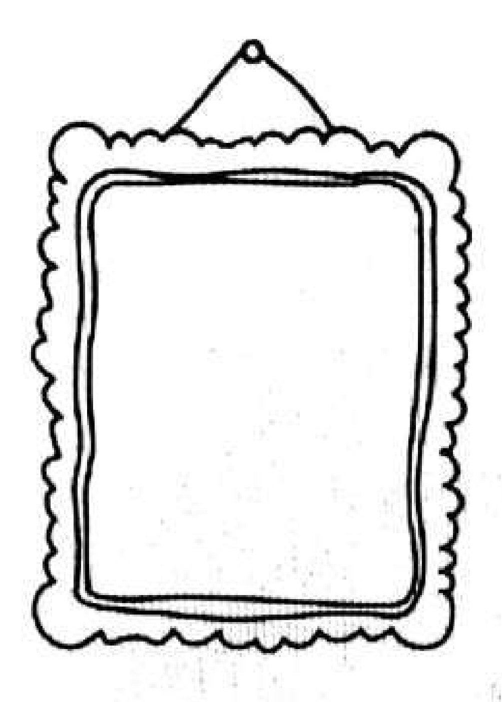
في الواقع، لم يعد الأمر يهمني. إنه نداء من الماضي، تلاشى. سواءً كان «الحرية» أم «الحياة» أم «السعادة»، لم يعد الأمر مهمًا. ودَّعنا بعضنا بعضًا بجُملة بسيطة: «إلى اللقاء». قال «كوماموتو»:

- سنلتقي مرَّة أخرى مُصادفةً.

- نعم، سنفعل. اعتنِ بنفسك.

- أنت أيضًا. افعل ذلك من أجلي.

وبهذه الجُملة، توارى وراء شخص عريض المنكبين. سيذهب إلى المنزل... إلى المنزل. شعرتُ فجأة بجوعٍ شديدٍ. قرقبة في بطني. جريتُ. ساقني الجوع.



حذاء أبي عند مدخل المنزل. جلد مُلمَّع، مُلمَّع لدرجة تجعلك ترى صورتك معكوسة عليه تقريباً. كان والديَّ يتناولان العشاء. مباراة بيسبول في التليفزيون. «چاينتز» متفوِق بثلاث نقاط. رأيتُ في الردهة، وأنا متفاجئ من كوني غير متفاجئ، أن الصورة التي وضعتها مؤخرًا في سلة المهملات، مُعلَّقة في مكانها مرَّة أخرى، تحتها ورقة صغيرة مثبَّتة بدبابيس مكتب، مكتوب عليها: «**لديَّ نيجاتف الصورة. كلما قمت بإزالتها، سأطبع منها نسخة جديدة**». أمي. وجه مُبتسم. الأسرة تستنسخ نفسها. أصبحت مرَّة أخرى واقفًا أمام جسر «البوابة الذهبية»، يد أبي على كتفي، طاقيتي مائلة على أحد الجانبين، كُنتُ بانتظار انزلاق حبة الرمل عبر الفتحة الضيقة في الساعة الرملية، بانتظار أن أبعد يده من على كتفي... انتظرت لفترة أطول قليلًا،

حتى زالت مرارتي بشأن ذلك. أو كما قال «كوماموتو»:

- لم أشعر بالمرارة، لأنني لم أرغب في الشعور بها. بذلت مجهودًا مُضنيًا كي لا أشعر بها. كُنتُ مدينًا بها لنفسي. لقد سهَّلت الأمر عليَّ.

دون الشعور بمرارة، أخذت صينية الطعام من عتبة الباب، عليها وعاء أرز ما زال يتصاعد منه البخار، ثم أخذت خطوة مدروسة، تبعتها خطوة أخرى، ثم فتحت باب غرفة المعيشة بيد غير مرتعشة. نظروا إليَّ بعيون محدقة. إيماء بالرأس صامت. كان أبي أول مَن كسر الصمت، قال موجهًا حديثه لأمي:

- ارفعي ما على الكرسي.

على كرسيي، الكرسي الذي لم أجلس عليه لمدة عامين، كانت هناك كومة مجلات قديمة، في إحداها صورة للأميرة «كيكو» زوجة وليِّ العهد تُلوِّح بيدها، كرة صوف حمراء، وأدوات حياكة. أزالت أمي كل ما على الكرسي سريعًا. سقطت منها كُرة الصوف على الأرض، وتدحرجت إلى أن وصلت أمام قدميَّ. دفعتها باتجاه أبي.

«الفريق يحرز نقطة»..

جلستُ.

- بالهناء والشفاء.

- هل تريد المزيد من الأرز؟

ملأت أمي الصحن، وقالت لي:

- إليك بعضًا من «التوفو».

ثم قالت لأبي:

- عزيزي، أعطِهِ من فضلك بعضًا من الكُرَّات.

في ثوانٍ، تمت إعادة ترتيب الطاولة من جديد. تمَّ تغيير أماكن الأطباق الجانبية والصلصات بحيث تكون في متناول يدي. أكلت آخر قطعة لحم. اصطدم عَصَوا الطعام الخاصَّان بأبي بالعَصَوَيْن في يدي، قُلتُ له:

- خذها.

- لا، إنها لك.

فرك بطنه، وقال:

- لقد شبعتُ.

نظرنا إلى بعضنا بعضًا. على عكس المتوقع، مرَّت هذه اللحظة

بسلام. ثم قال في النهاية:

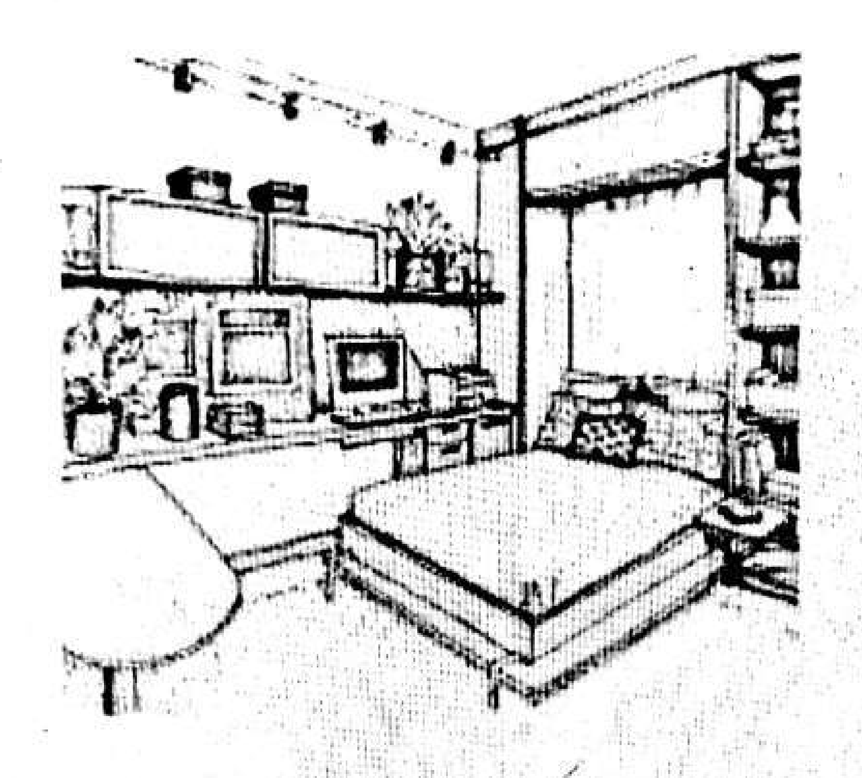
- بيرة! «كيكو»، أحضري لنا بيرة. سنشرب معًا. تريد أن تسأل في نخب مَن؟ حسنًا، في نخب «چاينتز» بالطبع.

جاء من التليفزيون صوت هِتاف حماسي. صوت المُذيع صار فجأة صاخبًا. استمرت المباراة. أحضرت أمي ثلاثة أكواب وحبَّارًا مُجَفَّفًا.

- نخبكم!

ضربنا ثلاثتنا كؤوسنا. ضحكت أمي، وقالت:

- أفضل طعم للبيرة يكون في نهاية يوم طويل كهذا.



كيف جلسنا معًا واتفقنا على الواقع بمساعدة الوهم. أدركتُ أن أبي وأمي كانا انطوائيين أيضًا. كانا حبيسين معي في المنزل؛ لأن حياتي كانت مرتبطة بحياتهما. قضى والدي إجازاته الشحيحة في المنزل. لا رحلات إلى البحر، لا قضاء لعُطل نهاية أسبوع في مسقط رأس أمي. كانا يذهبان بين الحين والآخر للسينما، نعم هذا كل ما فعلاه. جلسا في الظلام. ذهبا بين الحين والآخر إلى المطعم مع أصدقائهما الذين لم يروهما منذ سنوات. جلسا بين الحين والآخر في السيارة لبضع ساعات. لم يفعلا شيء سوى أن تحرَّكا بها، وتخيَّلا كيف سيكون الأمر لو واصلا التحرُّك إلى نهاية العالم. ثم يتوقفان ويقولان: «هناك مَن يحتاج إلينا». يستديران بالسيارة. يعودان. يذهبان

كل بضعة أيام إلى محل «فوجيموتو» ويتسوَّقان. الإفطار والغداء والعشاء. لم تغفل أمي وضع أي وجبة لي. كانت تضع معها أحيانًا تيشيرت، زوج جوارب، وفي فصل الشتاء سترة. وضعت العديد من الرسائل التي لم أقرأها، وتركتها غير مقروءة عند الباب. كُنتُ أتساءل دائمًا عن محتواها. ربما كتبتْ فيها أنهما شعرا بالسعادة بعد أن لاحظا أن هناك زجاجة «كوكاكولا» ناقصة في الثلاجة أو أن بلاط الحمام مبتلًا. ربما كتبت فيها أيضًا أنهما يشعران بحزن شديد بسبب انعزالي. ربما كتبت أنهما يشعران بالخزي بسببي أو ربما كتبت أنه كان صعبًا عليهما فهم سبب انعزالي عنهما. بعد كل شيء، كان الجلوس معًا والاتفاق على الواقع بمساعدة الوهم بمثابة أول تنفُّس للهواء بعد أن كنَّا ثلاثتنا تحت الماء. تجاوزنا سطح الماء. كنَّا لا نزال نلهث.

نهضتُ، وقلتُ:

- حسنًا، تصبحان على خير.

قال أبي:

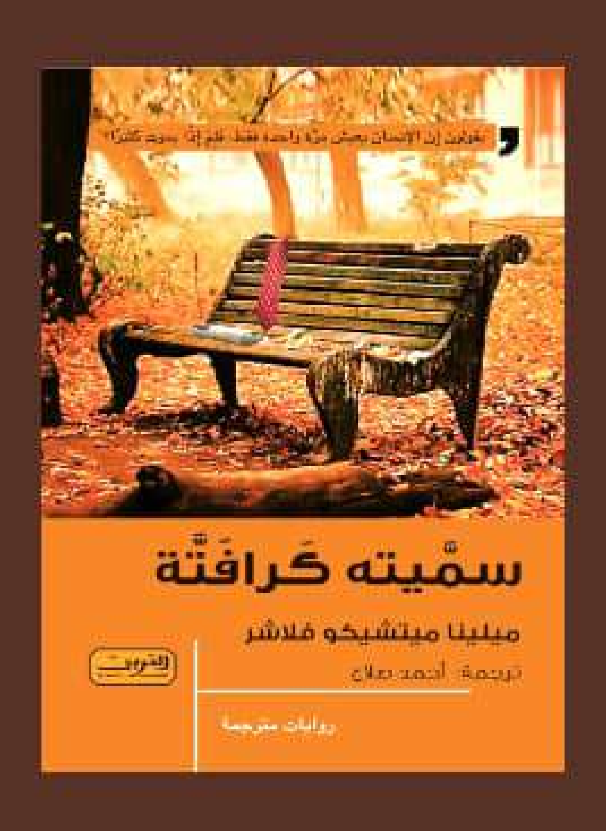
- لقد كانت أفضل مباراة شاهدتها منذ وقتٍ طويلٍ.

قالها دون أن يرفع عينيه من شاشة التليفزيون. أمسك كوبه الفارغ بإحدى يديه، وتشبَّث بيده الأخرى بحافَّة الطاولة. مفاصل

يده الشَّاحبة خانته. جمود كاشف عن حالته. كلمة أخرى وسيتهشَّم الكوب في يده.

البداية..




يقولون إن الإنسان يعيش مرّة واحدة فقط، فلِمَ إذًا يموت كثيرًا؟
سمّيته كَرافتّة
ميلينا ميتشيكو فلاشر
ترجمة أحمد صلاح
روايات مترجمة